سليم بركات



ألسّيرَةُ النّاقِصَةُ لِطِفْلٍ لَمْ يَـر إلّا أرضًا
هاربَةً فصَاحَ : هَذهِ لِخَاخِي أيُّها القَطا

الجندب الحديدي

سليم بركات

الجُندُب الحديدي

(السِّيرة الناقِصَة لِطفل لَمْ يَرَ إلّا أرضًا هَارِبة
فصَاحَ: هَذِهِ فِخاخي أيّها القَطا)

دارُ الطَّليعة للطّباعة والنشر
بيروت

بيروت ـ لبنان
ص . ب . ١١١٨١٣
تلفون ٣٠٩٤٧٠
٣١٤٦٥٩

الطبعة الاولى
تموز (يوليو) ١٩٨٠

مدخل

(هيهات أيها الطفل ، هيهات)

ما الذي تراه ؟ قل لي أيها الطفل ما الذي تراه ؟. هضبتان في الأفق ، وعقد من القرى وتراب يترنح بين صيف طائش وبين شتاء أحمق . وموعدك أيها الطفل موعد نبات أو طير . تغمض عينيك على ضحى تتساقط من سلاله الأقنعة ، وتقبض بكفيك على لجام غامض ، كأنما تتهيأ أنت للكهولة ، أو تتهيأ لك الكهولة ، لتختزلا ، معاً ، ذلك السحر الذي ينبض مرة واحدة فتنتحر الحياة شوقاً إلى نبضة ثانية .

هيهات أيها الطفل أن ترى غير ما رأيت . وما الذي رأيت ، قل لي ، غير عربات تئن ، وينابيع هاربة من ضربات الغبار ؟ . كفاك انتحالاً للأشكال لتطمئن إليك الأشكال . كفاك دفعاً بي إلى ندامى احتضنوا الجذور وناموا. لكن ، بالله عليك ، لا تخفف من وطء الغمام علي ووطء

الثلوج ، حيث ألمحك بينهما تنحر العصافير والوقت ، ناثراً من نشيجك على الأرض طفولة للأرض ، ناثراً شباك دمك السكران لتلتقط الملحمة.

أنت طفل ، وما الذي أرومه من طفل إلا أن ينفض عن ثيابه الشمال كله بيتاً بيتاً ، شجرة شجرة ، نهراً نهراً ، بيدراً بيدراً ، سنبلة سنبلة ، سحابة سحابة ، وأن يكسر جرار الأفق لتندلق أسراب السنونو والقطا ؟ ... اركضْ قدر ما تحتمل ساقاك ، اركضْ من الزوابع إلى الزوابع ، وارفع قلبك الصغير ابتهالاً إلى السهول التي تتزاحم من حولها الحروف والزرازير . أليس في صوتك صوت بنات آوى ؟ أليس في صوتك صوت شرخ ؟ أليس فيك ما في المديح كله من ترف مهزوم ؟ أنت طفل ، وما الذي يأسر الرياح فيك غير مدى مترع بالرياح ؟ . دعني أنبسط تحت درعك كما تنبسط الفجيعة ، فاتحاً ذراعي للبقول وللثعالب ، كأنما أنا هوى اندثار ، أو هوى رحيل شاهر فؤوسه على الخلائق ... وأنت طفل ، قل لي ما الذي رأيت من طفل ؟ قل رأيت صوتك عارياً بين الأصوات ، لاهثاً كرئة مكسورة تتدافع من شقوقها الحدآت وتنبجس المناجل . آآه أيها الطفل ، كم سمعتك يقظان في الحكاية تسرد للحكاية قلبك الصغير ؛ تسرد للحكاية لهو الأقحوان ، وتنسى كيف طعنتَ بخنجر الندى بيوت « بريفا » ، و « موسيسانا » و « عامودا » ، و « كيستك » ، و « بهارنك » ، و « موزان » و « سيمتك » ،

و « حلكو » ، و «كوجلك » ، و « العنترية » ، و «تربسبي» ،
و « عاكولة » ، « و « هرم رش » ، و « هرم شيخو » ،
و ... الخ الخ .

أنت طفل ، ها تجمع في جيوبك الباقلاء البرية ، وأزاهير البشتار السكرية . ها تتعمد أن يراك نواطير القمح لتضلل النواطير . تلك ملهاتك ، تلك ملهاة عمر سكران كدمك السكران . تلك ملهاة نصبتها بين فخاخك للحقول كلها ، وضحكتَ إذ علقت الحقول حتى تضاحكَكَ من حولك الهواء. وكنت أنت والهواء عاقدين امتداداتكما معاً ، وتنفخان في بوق واحد لتستنفرا طيش المخلوقات . لقد عرفنا ، يقيناً ، بعد كل هذا الرحيل ، أنك أنت من حفر طريق عربات التبن وموّهها ليكسر قوائم بغل « سمعان » ، وأنت من أوصل سلك الكهرباء بباب فرن « مرادو » فما أمسكه أحد إلاّ صعق . وأنت من دحرج المدحلة الحجرية عن سطح البيت على كلب « فلمز » فشلّ نصفه . وأنت من قتل ديك « هيلان » ذا الرقبة العارية والعرف المقصوص بحجر . وأنت من رش البهار في بركة إوزات « سقمور » فصرن مسعورات. وأنت من سرق عصا « كتام » الأعمى . وأنت من كسر أحد قرني كبش « مير » . وأنت من نام ، أخيراً ، وملء حلمه أن يفتح مقابر « هلالية » قبراً قبراً ليرى كيف يتسامر الموتى في مخابئهم الضيقة . لكنك طفل ، ومن ذا الذي يعاتب طفلاً ضربته صواعق الأقحوان فتناثر برعماً برعماً بين نبات حديد

وغيم حديد ؟ آه كم قلنا : لا تقترب أيها الطفل ، لا تقترب من الحطام ، بيد أنك اقتربت تلتقط من الحطام بقايا خزف لتزيّن المرائي .

لقد عرفنا ، يقيناً ، أنك كنت يقظان طوال هذا السبات الضارب بجذوره في خطواتنا ، والمرتسم كختم على الفتوحات التي لم تكن لنا ؛ لكن ، لم أيقظتنا الآن وأسلمتنا للدعابة ؟ كبار نحن أيها الطفل ، كبار يلهون بقعقعة الحديد أمام باب الوقت ، ويذرفون الفلز البارد . كبار نحن ، لا نبسط أقدارنا لسنونوة عابرة أو لمرح ، ولا نلبس إلاّ حكمة البطش . فإذا هممت ، ثانية ، أن تختبىء من الأرض وراء فراشة فلا تنتظرنا ، لأننا سنقف هنا ، تحت هذا الصليل الصامت للأدوار الصامتة ، رافعين قرون الماعز في مهب الملهاة .

كنت يقظان فأيقظتنا لنلمحك عابراً بوابة النّبات ، ووراءك نيزك من مياه وريش. لنلمحك وسط أسلحة الضحى دافعاً سهول « كيستلك » إلى « نصيبين » ، غير عابىء بحرس المدن الذين أطلقوا على مرحك سهام تاريخ أبكم . كنتَ ممتداً ، آنذاك ، مثل قلب سكران ، وبقيتَ ممتداً مثل قلب سكران ، فها أنت ترانا — نحن الذين أنحسروا — راكضين من جرف إلى جرف لنوقف انحسار الجهات عنا ، خشية أن نرى الحاضر الذي لا جهات له . إيه ، ظلّ ممتداً أيها الصغير ، ظلّ صغيراً كما تشتهيك الجذور ، واكسر ما شئت من

الجرار والأباريق ، فأنت حلو في طيشك ، حلو في سلطانك الطاغي ، حلو حين تخلع سياجات الورد وتبطش بالورد ؛ حلو حين تركب ظهر الكبش فيهيج ، حلو حين ترمي الينابيع بالحجر فيجفل البقر الشارب ، حلو حين تسلخ الحرباءات أو تعبث بأعشاش العصافير ؛ حلو حين تسرق البقول وتنصب الفخاخ للحمام ؛ حلو حين تحرق القطط والبيادر ؛ حلو حين تطلق الثيران من الزّرائب فتشرد الثيران ؛ حلو حين تربط مناقير الديكة الرومية ؛ حلو حين تهذي عن كواكب زاحفة ومياه ترتدي جناح الطيور ؛ حلو حين تهذي عن سائس يسوق الغيوم بسوطه ، وعن عربات في قاع النهر ؛ حلو حين تهذي عن ثعالب الظلام وتيوسه ، وعن بغال ذات شعر كشعر النساء . حلو حلو أنت ، فدعنا بالله عليك .

غير أنك ، أنت اليقظان ، توقظنا لنسرد المهزلة .

(انتهى المدخل ، وتليه المنفصلات
الخمسة في السيرة الناقصة)

فاصل أول
(العنف الهندسي)

كنا صغاراً يا صاحبي ، صغاراً جداً ، مثل فراخ الاوز ، واقفين على طرفي الشارع كسطور الكتابة . وكان ثمت هرج كبير ، هرج مهول . وكان المعلمون ، الذين يقفزون بين الصفوف ملــوحين بعصيهم ، اشبه بقطط مذعورة ، يصرخون : « انتبهوا ، لوّحوا بأيديكم حين يمر الرئيس » ... ومر الرئيس ، مر وسطنا ملوحاً بيديه ، ثم اختلطت الصفوف الهندسية وراء الموكب ، وتحولت إلى كتل سوداء متدحرجة ، عنيفة في فوضاها .

سقطت على الأرض مراراً ، تصطدم بي الاجساد والارجل ، وانا اجاهد للخروج من البحيرة الآدمية ، وحين وصلت إلى البيت كان وجهي اقرب إلى التراب منه إلى وجه طفل .

تلك كانت بداية العنف يا صاحبي ، بداية امتدت

اسبوعين في مدينة صغيرة قرب جبال طوروس ، بداية فرح رسمي « عنيف » . وكان علينا ان نهتف طوال الوقت ، داخل حجرات الدراسة وخارجها ، وان نزين الجدران مرات ومرات ، حيث يقتضي الامر ولا يقتضي ، وان نعلق اعلاماً صغيرة على صدورنا ، حيث يقتضي الامر ولا يقتضي ، وان نرسم فرحاً غامضاً على وجوهنا ، دونما التفات إلى اعماقنا .

كأن عنف الفرح « الرسمي » عنفاً يفوق طاقة طفل لا رسمي ، ومع ذلك كان علي ان اتحمله في خضوع ساحق ، وان أصير عنيفاً بدوري ، عنيفاً إلى درجة تفوق طاقة طفل .

تلك كانت بداية العنف يا صاحبي ، بداية دعتني إلى سرقة الطباشير الملونة من المدرسة ، لاملأ مربعات السور الحجري في الحديقة العامة حروفاً هي حروف اسمي ، وحروفاً أخرى هي حروف صنف قلم الرصاص الذي اكتب به (H.B.) وكان الاسمان مدخلا إلى كسر « السلوك العام » ، سلوك « النظيفين » ، وسلوك الحرص على « « النظافة » العامة . لكن العنف الذي ظننته خاصاً بي تسلل إلى بيتنا منذ ذلك المرور العنيف للرئيس ، واتخذ اشكالاً تدريجية في ظهوره داخل عائلة تبلغ احد عشر فرداً .

كانت باحة بيتنا يا صاحبي ، الباحة الواسعة جداً ، والمحاطة بسور عال ، تقبل رويداً رويداً على وحشة لم تعهدها.

فالضيوف – الغرباء منهم والمعروفون – الذين كانوا يأتون ويمضون دونما سبب للمجيء أو للمغادرة ، يتناقصون يوماً بعد آخر ، تبعاً لتناقص املاكنا ، وكان ابي يزداد تجهماً وطأطأة ، يزداد عنفاً صامتاً لا يفصح عن كنهه الا داخل الاسواق التجارية في المدينة ، حيث يصطدم التجار اليائسون ، في مضارباتهم على الحبوب ، فيرتفع أكثر من مائة يد تحمل خطافات حديدية وتهوي فيتناثر اللحم العاري .

كانت تلك بداية الفرح « الرسمي » العنيف ، وبداية الفقر الشعبي العنيف . بداية خرجت من المدرسة إلى الاسواق التجارية ، ودخلت البيوت ولم تخرج منها .

وكنت طفلاً يا صاحبي ، لا أخرج من البيت صباحاً الا بعد خروج ابي من البيت ، ليتسنى لي أن أصرخ في وجه امي : « انا لا أحب الشاي . لا احب الشاااي » . ثم اركل الابريق فادلقه كاملاً ، واقذف بالكأس قدر طاقتي إلى الحائط . ثم اهرب إلى المدرسة ، واعود اهرب من المدرسة إلى مستنقع « قاسمو » لاراقب افاعي الماء .

كان ذلك دأبي كل صباح ، كان دأب اخوتي ايضاً ، منذ ان ملأ ابي البيت بأشباح تحمل الخطاطيف الحديدية ، بأشباح هاذية تلف رؤوسها بخطات مرقطة تكثر عليها لطخات دم جاف .

واتسعت البداية ، اتسعت كدوائر الماء في بركة رموها بحجر . وصارت الجرار الخزفية ، المركوزة على قواعد من الخشب داخل البيت ، تتساقط واحدة تلو اخرى ، تتساقط وتتناثر . وتأتي جرار جديدة لتتساقط وتتناثر . وعرفنا ، نحن الاخوة ، ان ذلك لا يشفي غليلنا ، فصرنا نرمي زجاج النوافذ بالحجارة ، ونغيب بعدها عن البيت يوماً أو يومين ، حتى تهدأ ثائرة امنا ، فنعود نكسر جرة أو نخلع شجيرة ورد من جذورها ، ونهرب من جديد .

واتسعت البداية ، واتسعت الكراهيـــة ، واستفحلت العـــداوة بيننا وبين أمّنـــا . نهرب من البيت كثيراً ، وحـــين يسقط احدنا في قبضتهـــا يغيب عن الوعي . امي لم تكن تكتفي بالضرب بالعصا ، كانت تضرب بكل ما يقع في يديها ، أحجراً كان ام حديداً . ويسيل دمنا ، نحن الاطفال ، وقد قدرت ان انفذ منها ذات مرة يا صاحبي ، فركضت إلى ركن من باحة البيت تحتفظ فيه بسرب من الأرانب ، خلعت الشّبك المعدني من حولها ، وهويت عليها بابريق نحاسي ذي قاعدة مستديرة حادة . صارت الارانب تتخبط . تمد قوائمها الخلفية ثم ترتعش لتهـــدأ هدوءً لا حدود له .

اثنا عشر ارنباً حصيلة المجزرة ، وعشرون يوماً من التسكع حـــول البيت دونما جرأة على دخوله . انام بين شجيرات القطن في حقل قريب ، وآكل مما يسرقه لي اخوتي .

وضاقت البداية لتصير كالرسن . ضاقت المدينة الصغيرة

المتاخمة لجبال طوروس . يتحدث الناس بعضها إلى بعض بما يشبه الهمس ، وابي يزداد هرماً . وحدهم العتالون الذين اغدق عليهم ابي ، في مجده ، بالمؤونات من الحنطة ، يشدون ازره . وكانوا جهلة عنيفين من اجل الخبز . يقولون : « ليكن... لن تكون صفقة إلا ولك حصة فيها » . ويهددون سائقي الشاحنات . لكن الدولة تولت وحدها تسويق كل شيء ، فانقسم العتالون على انفسهم ، صاروا فرادى ، يسعى واحدهم بخطافه الحديدي إلى سحب لقمة الاخر من فمه .

كنا نرى إلى ذلك ، نحن الاطفال ، ونقتسم العنف ، نتخاطفه كما نتخاطف الحلوى المتسخة من الايدي المتسخة . وكان ملكوتنا هو الملكوت الأبعد عن السماء ، كان ملكوتاً من الغبار ومن فرح السباحة في مستنقع « قاسمو » ، أو الركض بين السنابل لنتركها وراءنا عصفاً مأكولا . ونتبارى في قنص الدجاجات الشاردة بين الحقول بمقاليعنا : تتخبط وتهوي . تركض وتهوي . تفرد اجنحتها لصق الارض وتفتح مناقيرها التي تمتلىء بالتراب ، ثم تهدأ .

كنا اطفالاً يا صاحبي ، اطفالا يحبون وصف الحيوانات وهي تموت في بطء . نحب وضع ورق الخرشنة في انوفنا حتى يسيل الدم ، ونتباهى بذلك ، نتباهى بالذي يسيل دمه

أكثر ، بالذي يحمل كدمات أكثر ، بالذي تزداد الجراح العميقة في وجهه أو يديه ، ويأما وقفنا في الليل تحت المصابيح الشحيحة في الشوارع ، ننتظر وصول عربات الخضر أو البطيخ الأخضر من القرى والحقول المجاورة إلى سوق المدينة . نتلطى حين نسمع حوافر البغال ، وصرير العجلات الخشبية . نتلطى حتى تجتازنا فنهرول ، حفاة ، وراءها ، حاملين ، دائماً ، سكاكين صغيرة أو شفرات حلاقة ، ونقطع الحبال فتتدحرج الحمولة . نحمل ما نستطيع حمله ونهرب . لا أحد يستطيع اللحاق بنا ونحن حفاة . نأكل قليلا مما خطفناه ، ونتراشق بالباقي .

كنا صغاراً يا صاحبي ، صغاراً يسهرون في الليل تحت مصابيح الطرقات . صغاراً لا يفكرون الا في سرقة أو خطف أو تحطيم ، ويكرهون المدرسة ، يكرهون الدفاتر والمعلمين ، ويرتجفون في الصباح حين يمر عليهم الناظر ليرى اظافرهم وشعورهم . نخاف دائماً . نخاف من البيت ، ومن المدرسة ، ومن الشرطي . ونتمنى أن نفيق ذات صباح فنرى الأرض قفراً إلا منّا .

كنا اطفالا بلا طفولة . وكان الكبار يتباهون بوحشيتنا . انهم يحبون الاطفال القساة . ونحن نحب الرجال القساة . الرياضيون يفتنوننا ، ونقتدي بالقبضايات . لا طفل الاّ في جيبه سكين ، أو على وسطه سلسلة حديد . والكل يتقن

صنع مقلاع من القنب ، أو صنع كرباج من أشرطة الكهرباء الرفيعة . والكل مهووس بجمع النفايات النحاسية لانها تباع . وفي مقدور الكل أن يحطم سيارة ليأخذ منها قطعة نحاسية ، يقوده ثمنها إلى السينما .

اننا نحب «كيفورك» لانه تغلب على ستة رجال مسلحين. نحب « كنعان » لانه يدخل أية دار للسينما مجاناً . نحب « شرو » العتال ، لانه يتقاضى أتعابه من كل تاجر حبوب ، من دون ان يحمل كيساً واحداً على ظهره ، وهو عنيد وسريع في إشهار خنجره . دخل السجن سبع عشرة مرة . هذه رموزنا .

... وتضيق الطفولة ، وتضيق البداية : بدأت أعي شيئاً جديداً لم يكن في الحسبان ، عنيف وصارخ : أنت كردي . الاكراد خطرون . ممنوع أن تتحدث بالكردية في المدرسة . هذا جديد ، لانك تعرف ان ثلاثة أرباع هذه المدينة المتاخمة لجبال طوروس هم أكراد . وها أنت تلمس المسألة : المعلمون يغالون في تحقير التلامذة وضربهم . والبداة الذين يهتفون لكل نظام جديد ، يفدون إلى المدينة ، ويراقبون الوجوه . أنت طفل ، لكنك لست اعمى . انهم يكرهونك سلفاً ، ولا تدري لماذا . المعلم يكرهك ، ويكرهك موظف الدولة والشرطي . هذا شرط جديد ، فلأكن عنيفاً اذن ، عنيفاً أكثر مما ينبغي تجاه هذا الاقتحام الشيطاني .

تنظر ، بدورك ، إلى اطفال البدو شزراً في المدرسة ، تسخر من الحلاقة الغريبة لشعرهم ، ومن الوشم الازرق الذي يغطي انوفهم وخدودهم وأيديهم ، ومن بدائيتهم المفرطة . لكنك لا تعرف لماذا يفضلونهم عليك . ولذا تنتظرهم بعد الانصراف من المدرسة ، وتختلق أي سبب للمشاجرة . يعاقبك الناظر في اليوم التالي ، بيد أنك تستمر على المشاجرة يوماً بعد يوم . يطلب الناظر أن تجلب ولي أمرك فيأتي والدك إلى المدرسة . يحتقره الناظر للكنته الاعجمية ، لكن والدك عنيف ذو كبرياء ، يقول للناظر : « من أنت لتخاطبني هكذا ؟ » ، يقول الناظر : « رب ربك ... » . يذهب أبي غاضباً . وفي اليوم ذاته يقف عتالان في الشارع الذي يضم بيت الناظر ، ويسحلانه على الارض من قدميه . يشتكي الناظر إلى الشرطة . تأتي الشرطة فيرفض والدي المضي معهم . يجتمع القبضايات والاقرباء أجمعين في غضب كاسح . يصل الامر إلى مدير المنطقة ، وهو برتبة مقدم . يأتي المقدم في سيارة فخمة ، فيخرج اليه حسين آغا صارخاً : « سأدوس قبعتك اذا أخذت هذا الرجل » ، ويسوّي الامر في هدوء ، وفي هدوء يتخلى الناظر عن عدائيته ، لكن المسألة لا تنتهي ، فتصبح الطفولة جحيماً ، وكذلك البداية التي لوحت فيها بيديك الصغيرتين للرئيس .

وتتراكم الامور ، فتمعن في الذهاب ، ليلاً ، إلى حقل القطن لتجمع جوزه الاخضر الذي لم يتفتّح بعد ، وتمعن في

اقتلاع نبات العجور وشجيرات الباذنجان ، وتمعن في تسلق السطوح لتهدم أعشاش العصافير وتكسر بيضها . ويصل بلك الامر إلى مغافلة حارس الحي ، النائم دائماً ، لتسرق مسدسه الميري ، أنت وجمع من رفاقك ، ثم تحتارون فتلقونه في نهر « جغجغ » . يذهب الحارس إلى السجن ثلاثة أشهر ، بينما تضحك من الامر وتتندر به . أما والدك فيغرق في لعبة جديدة، هي الصيد . انه يطلق طلقة ١٢ ملم على عصفور واحد فيتمزق العصفور تماماً ، تدرك أن هذا ليس صيداً ، فتبدأ صيدك انت ، وسط الطفولة التي لم تبق طفولة . تنصب الفخاخ هنا وهناك ، فتصطاد العصافير والزرازير والتيتي ، وكلما تمكنت من طير نزعت عنه ريشه ، ودفنته حياً . لكنك كنت تجن شوقاً إلى الظفر بهزاز الذيل ، الذي لم تتمكن منه قط ، فهو ماكر جداً ، لا يهدأ في مكان : انه التحدي حقاً ، التحدي الذي يجعلك حانقاً إلى درجة لا تطاق ، وتقسم أن تسلقه حياً اذا أمسكت به .

انت طفل بلا طفولة ، والبداية تضيق ، ومع البداية تأتي الثلوج ، ثلوج السنة ذاتها التي رفعت فيها ذراعيك تحية عنيفة لمجيء الرئيس . وطوال خمسة أيام كنت تتسلق سطوح الجيران لتسد مداخن بيوتهم بالثلج . كانوا يطاردونك أحياناً وكنت ماهراً في النجاة ، تماماً مثل مهارتك في صنع مثلجاتك الخاصة ، التي هي مزيج من الثلج ودبس العنب .

أنت تحب الثلج ، تحب هذا اللون الطاغي الذي يسطو

على الالوان كلها ، تحب امتداده وامتداد خطاك فيه ، لكنه يعقد الامور قليلاً ، لانك حين تدخل البيت وقد امتلأ حذاؤك بالثلج ، وابتل جوربك ، تغافل أمك لتضع الجورب على المدفأة تماماً ، ولا تمضي دقائق الا ويحترق . وهنا ، أيضاً، تهرب من البيت خوف القصاص . تهرب إلى الثلج البارد وترتجف وترتجف ، حتى يغدو لونك أزرق محتقناً. تشتم الثلج وتحبه . تشتم البيت ولا تحبه . تضرب أخوتك لانهم يفسدون السطح الاملس للثلج في باحة البيت وهم يعبثون . وأخيراً ، تنطوي في زاوية ما ، حزيناً جداً ، وحين لا تعرف كيف تحدد سبباً لحزنك تعود إلى البيت مستسلماً ، فتتلقفك الايدي ، ويسيل من أنفك الدم ، أنت الطفل .

تهدأ قليلاً وقد أحمرت عيناك . تفكر في فعل ما ، فعل صاخب أو مدمر . تقترب من المدفأة لتفتح مسيل المازوت على آخره ، وتضج المدفأة وتحمر كرأس لفافة والدك . وهنا تتمنى أن يزداد الوهج ، أن تنفجر المدفأة وتحرق البيت ، لكن لا شيء يحصل ، بل تتفجر أنت ، تتفجر طفولتك طيناً وطيوراً عارية ميتة . تتفجر طفولتك خطافات حديدية وسكاكين ، وجراراً مكسورة ، وثياباً ملوثة بالدم ، وفخاخاً،وبنادق صيد ، وبطيخاً أحمر مهشماً على الارصفة .

فاصل ثان
(في ارتطام الجهات)

ها نحن ، في قنبازاتنا الصغيرة ، متحلقون حول ديكين روميين . أتعرفون الديك الرومي ، الديك الذي يفرد ذيله كمروحة كبيرة وتتدلى زوائده اللحمية من فوق منقاره ومن تحته ؟ أتعرفون أمير الديكة ؟ الأمير الأسود الضخم ، الذي تبيض أنثاه بيضة في حجم ثلاث بيضات من بيض الدجاج ؟ أتعرفون بيضة الدجاجة الرومية ، البيضة المرقطة التي تكفي واحدة منها كوجبة لطفل مثلي ؟ ... ما أحلى الديك الرومي وأنثاه ، ما أحلى هذا العراك الصعب بين ديكين روميين .

ها نحن نسمع خبطة الأجنحة وخبطة المناقير ، نسمع الصوت المتوهج لذكرين ممتلئين ذكورة ، يعرف أحدهما أن الغلبة صنو الإنكسار ، لكن الصراع يجعل اللعبة أكثر

من لعبة ، بل يجعلها توأم حياة لا تستوي الا باللعبة . لذلك تشتد خبطة الأجنحة ، ويشتد احمرار اللحم المتدلي من فوق ومن تحت المنقار . تشتد الإنتفاخات والهواجس ، ويعلو صراخنا .

يقترب الديك من الآخر ويعلوه قبل أن ينقره على الرأس . يتطاير الريش ، وتتطاير العيون . نقرة من هذا ونقرة من ذاك . الذيل مفرود على آخره ، والأجنحة تلامس الأرض كأيدي المصارعين قبل الألتحام . ونصرخ هيا ايها الديك ... هيا يا ابن الكلب .

يبتعد الديكان كأنهما يتمهلان لانقضاض أخير . ونترقب : هيا يا ابن الكلب . وحين يهدآن قليلاً ، ندفع أحدهما في اتجاه الآخر ، بل نجره جراً ، فيبدأ العراك من جديد .

وهنا ، وقبل أن يسقط أحد الخصمين ، تركض أمنا صارخة : « يا زبانية ... أنتم وحوش » . ونركض من ساحة الدار قبل أن ينالنا حجر أو ضربة عصا .

نعم يا صاحبي ، كنا صغاراً آنذاك ، صغاراً يلهون بصراع الديكة ، أو يسحبون البيض من تحت الدجاجات قبل أن يفقس البيض . وياما كسرنا البيض فوجدنا فيه الصيصان العارية ، الصيصان الدبقة المبتلة التي لم تكتمل .

وياما وجدنا صفاراً مغطى بالدم ، أو علقات شبيهة بصغار الضفادع .

نحن نحب الأشياء قبل أن تكتمل ، نحب صراع الديكة حين لا يكون فيها غلبة لديك ، ونحب البيض الذي لم تكتمل فيه الأجنّة . نحب المناقير القوية ، وصخب الريش . هكذا نحن يا صاحبي ، وهكذا هي حياتنا . لم نكن نحن سبباً في صراع الحيوانات . إنها مندفعة إلى ذلك بغريزتها . لكننا كنا نزيد الأمر اثارة حين نجعل الصراع صراعاً لا بد منه ... أتعرف كيف يا صاحبي ؟ سأقول لك أننا كنا ندفع الأكباش بعضها صوب بعض . نمسكها من قرونها ، ولم يكن الأمر يحتاج إلى جهد كبير . يكفينا أن نقرب كبشاً من كبش فيبدأ العراك . وعراك الأكباش لا يشبه عراك الديكة الرومية . إنها عنيفة ، ترتفع بصدرها عن الأرض مقدار متر وتتناطح ، ترتفع وتتصادم في الهواء فينتفض بين أصوافها الغبار الحنون .

تتشابك القرون فتهدأ ، كأنها لن تتعارك بعد ذلك ، لكنها تنقض حين تفلت قرونها . الجبين على الجبين ، وصوت النطح كصوت الطبل .

تتراجع قليلاً ثم تنقض ثانية . تتراجع وتنقض . يسقط كبش على الأرض ثم ينهض ، يسقط ثانية ثم ينهض ليهرب بعيداً . ولقد رأينا أكباشاً هاربةً مكسورة القرون، تظل تعوي

كالكلاب أياماً حتى يلتئم جرحها .

عادة ، يحتفظ الأهلون بكبش واحد ، كبش منتصر يظل يحوم حول نسائه . والمنتصر مدلل ، يضعون على صدره مادة ملونة ليعرفوا كم من الإناث مررن من تحته ، ويطوقون عنقه بجرس وببعض الخرز : إنه يقترب من النعاج ويعلوها في حركة غريبة . تركض النعجة أول الأمر ثم تستسلم في هدوء لا يعكره إلا لهاث الكبش وحركة اليته التي تتمايل يميناً ويساراً . نصرخ : هيا ... هيا يا ابن الكلب ، وينظر واحدنا إلى الآخر في خبث واضح .

كل الحيوانات كلاب ، أو شبيهة بالكلاب : الدجاج والنعاج والعصافير ، هكذا نفهمها نحن الصغار ، وهكذا نشتمها . بيد أني كنت معجباً ببغلي « « باقي كازمو » ، و« باقي كازمو» سائس عربة ، وعربته (الحنطور) تنقل الركاب من أول مدينة القامشلي إلى آخرها .

كان « باقي كازمو » يضع سياجاً صغيراً من الأسلاك الشائكة وراء عربته ، حتى لا نجلس على العارضة التي تصل ما بين العجلتين الخلفيتين . وكان من عادتنا أن نجلس على العارضة تلك ، كي نختصر المسافات ، وكان هذا دأبنا مع كل عربة من عربات نقل الركاب . لكن بعض الأشقياء منا ، حين لا يقدر على الركض وراء العربة ،

يصرخ : « سوط ... سوط ... » ، وتلك اشارة يفهمها الحوذيون ، ويفهمها « باقي كازمو » ، الذي يلهب بسوطه بغليه ليركضا ، ثم يلتفت إلى الوراء ويصرخ : « خذوا » ، فيلتهب ظهرنا من ضربة سوطه ، فنلقي بأنفسنا على الرصيف ونتدحرج. وكنا نتمنى أن نلسخ بغليه ذات يوم. لكنني كنت معجباً بهما ، معجباً بناصيتيهما اللتين يتدلى عليهما الخرز والشناشيل .

والحق أقول ياصاحبي ، كان في وسعنا أن نسلخ الحيوانات . أتعرف كيف نسلخ الحيوانات الميتة ؟ دعني أخبرك ما لا تعرفه من أمر ذلك :

كان أطفال حارتنا فقراء . كانوا فقراء حتى العظم ، يأكل بعضهم طين الجدران ، وكانوا إذا أكثروا من تناول الطين يأخذونهم إلى أطباء المدينة ، فيقول الأطباء إنها عادة خبيثة (لا أقول ذلك من قبيل المبالغة ، إسألوا الأطباء عن آكلي الطين) ، وكان هؤلاء الأطفال مستعدين لفعل أي شيء من أجل كسب مصروف صغير .

... وعادة ، حين يصبح البيطريون أطباء للبشر ، تزداد الحيوانات النافقة (والبشر النافقون) . وكان ثمت واد قريب من المدينة ، يرمي فيه الناس حيواناتهم الميتة ، وحيث تكون الحيوانات الميتة يكون الأطفال .

هنالك كانت سكاكين المطابخ المسروقة تفعل فعلها ، فتسلخ الجلود عن اللحوم النتنة ، لكن رائحة الكسب كانت

اقوى من كل رائحة ... وهكذا يخرج طفل ، أو طفلان ، بغنيمة دسمة ، حيث تساوي جزة من الصوف ليرة أو ليرتين . نعم يا صاحبي ، الجزة تساوي ليرتين ، والليرتان تساويان دخول المسبح الشعبي أو السينما أربع مرات .

كنا أطفالاً نهتم بالموتى ، ونعيش بالموتى . هذا دأبنا . لكننا نعيش بأشياء أخرى غير الخبز .

إننا نعيش من التهريب أيضاً ... أتعرف كيف يعيش الأطفال من التهريب ؟ تلك مسألة معقدة ، لكن دعني أفسرها لك :

مدينتنا على تخوم تركيا . بيننا وبينها خط مديد من الأسلاك الشائكة ، لكنه لا يثنينا عن عزمنا على دخول بلاد لا نعرفها ... وندخل تركيا عبر دغل صغير من أشجار الكينا والعليق . يقول لنا دليلنا الصغير مثلنا (١٢ سنة) انه يعرف مكان الألغام ، والأتراك لا يعرفون كيف ينصبونها جيداً . ويقول دليلنا الصغير : إذا وطأتم مكاناً ليناً ، وسمعتم صوت طرطقة ضعيفة فهناك لغم . وإذا وطأتم لغماً فلا تتحركوا قط ، وأنا كفيل بالباقي ... وندخل ماردين ، مدينة الزبيب ومشتقات العنب . نبادل الناس هناك التمر بالتبغ . (لا نخل في تركيا ، وكيلو التمر يساوي خمس علب من التبغ الفاخر) . ونبيع التبغ ، حين نعود ، إلى البقالين بسعر بخس .

كنا أطفالاً يا صاحبي ، لا نعرف أن ممرات الأدغال هي ممرات تصل بلاداً ببلاد ، بل كنا نشعر أن الأرض مستوية تماماً ، وأن الحدود التي يرسمها الكبار هي حدود الكبار وحدهم . لذلك ، نصبنا فخاخنا تحت الأسلاك الشائكة ، تحديداً ، حيث تحط اليمامات البرية بحرية لم نعتدها في بلادنا . وكنا إذا حظينا بيمامة ركضنا اليها بفرح وبرعب ، خشية أن يطلق الجنود الأتراك علينا النارَ . (لا تمر ليلة إلا نسمع فيها طلقات نارية مصوبة على المهربين) ، لكن تركيا قريبة جداً ، قريبة إلى درجة المصاهرة ، وما زلنا نحب الآستانة (يحبها آباؤنا) ، ولا نحب أتاتورك ، برغم أننا نردد في عفوية عن واحد من سلالته : « يا شا يا شاشا / جمال غورسيل غول باشا » .

في هذه الأثناء ، في اثناء الأعوام الطرية جداً كفخذ البقرة ، كنا نهتم بأشياء اخرى ، وننتظرها بفرح لا يوصف ، احداها موسم الحصاد ، والثانية موسم سلق القمح لجرشه ، وجعله برغلاً . كانت هاتاذ مناسبتين طريتين كأعمارنا . في الحصاد ننتظر ان تتهيأ الحصادات الضخمة ذوات المراوح الخشبية وأمشاط الحديد . وكان يلزمها — من أجل أن تتهيأ — وقت من الصيانة مليء بالمرح : يغيرون الأمشاط الحديد ، يفكون المراوح قطعة قطعة ، وكذلك الدرّاسات التي تفصل القمح عن التبن (كل ذلك يتم في الخلاء ،

حيث تنصب خيمة كبيرة ، ويجتمع عدد هائل من العاملين) .

كانت الآلات الصغيرة تستهوينا : المطارق ومفكات البراغي . الكماشات والأمشاط الحديد الصغيرة . كنا نسرقها احياناً ، ونوهم انفسنا أننا نعيد صياغة العالم على حيطان اللبن . نقشر الحيطان بالآلات ، نقشر مساحات كبيرة فتبدو قوالب الطين من تحتها متراصة في صلابة . نخبىء الآلات في حفر تحت الأرض ، ونغطيها بالتراب ، ثم نقترب مرة ثانية من عمال الصيانة . نغافلهم لنضع ايدينا في الزيوت والشحوم . نفرك ايدينا بعضها ببعض ، فينتابنا شعور عمال حقيقيين .

وللحصاد ، بعد ذلك ، نكهة خاصة : الحصادات تعري الأرض من ذلك النبات الذهبي الهش ، تماماً كما نتعرى من قنبازاتنا قبل الإنزلاق إلى الترعات . والحصادات اشبه بغيلان أليفة ، نركض من ورائها حيث يتناثر القش عالياً بفعل المراوح ، بعد أن تنفصل الحنطة عن سنابلها . نركض وراءها لتلفنا زوابع القش . نبعثره ونتخبط فيه فتمتلىء ذؤاباتنا وثيابنا بالقشور .

والكبار يركضون ايضاً وراء الحصادات . الرجال والنساء . إنهم يجمعون القش في حزم كبيرة ، وينقلونها على ظهور الحمير ، لتصبح علفاً في ما بعد ، أو لتمتزج

بالتراب الأحمر الذي يصنعون منـــه لبنات البنـــاء ... كل شيء ، هنا ، من طين يا صاحبي . الأرض طين والبيوت طين ، وكذلك الطرق . وحيث يكون الطين يكون القش . ونعتقد ، بعد ذلك ، إننا ولدنا من القش ، وإننا سنصير إلى قش ، وأن حدود الأرض هي حدود الرياح التي ستحملنا معها . اما موسم سلق الحنطة فهو المهرجان . إننا نشتري الصناديق الخشب الفارغة ، وكذلك الإطارات المطاطية . نضع « الدست » الكبير على حجارة ضخمة ونشعل النار . تغلي المياه رويداً رويداً طول النهار . تنتفخ الحبوب وتلين . تنتفخ وتنفجر من شدة سلقها . حينئذٍ تنبسط الحصر على السطوح ، وتعلو الدلاء ممتلئة وتهبط فارغة . تعلو وتهبط ، وينبسط « السليق » الأصفر دلواً إلى جانب دلو .

اطفال الحارة كلهم يجتمعون قرب « الدست » الضخم ، كل يحمل طاسة أو صحناً . ينتظرون من الصباح . يذهب البعض ويأتي البعض الاخر ، في مناوبة طويلة ، كأنما يخشون فوات الأوان . وحين يتم السلق ، يأخذون حصصهم الصغيرة . يرشون على الحنطة قليلاً من السكر ، أو يمزجونها بالسمن والملح ، ويأكلونها في شهية حقيقية .

تلك مأدبتنا الصغيرة يا صاحبي ، لكن المأدبة الكبيرة ، مأدبة الدم الذي يغطي باحات البيوت ، لها موسمها ايضاً .

في آخر الصيف ، وبعد ثاني دفعة من المطر الذي يتساقط أحمر كالطين ، تبدأ المجزرة ، أذ يبدأ الجزارون بشحذ بساطيرهم وسكاكينهم ، فتتساقط الحيوانات الصغيرة والكبيرة ، فوجاً فوجاً ؛ ويكثر اللحم والثريد .

كل بيت يهيء خرافه أو أبقاره للذبح . على مدى أشهر يتم تعليفها حتى تمتلىء اجسامها ، لتصير مؤونة خريف وشتاء كاملين .

وكل بيت يتعاقد مع جزار ، والجزار لا ينال إجراً نقدياً ، بل يستأثر لنفسه بجلد الضحية وامعائها : هذا هو بدل اتعابه .

كنا صغاراً يا صاحبي ، نتحلق حول هذا الرجل الجلف ، الرجل الصامت الذي يلوي عنق البقرة من قرونها حتى تسقط أرضاً ، ثم تتحرك يده حركة خفيفة جداً ، حركة حذقة ، وينفر الدم عالياً ، ينفر في خيط رفيع وقوي . وحين تتسع مسافة الجرح بين الرأس والجذع تبدأ الينابيع الحمراء الساخنة اندفاعاتها ، وتسيل على التراب فاتحة فيه اخاديد ضيقة ، أو تفيض فتترك على الأرض بركة يعلوها بخار خفيف .

جميل هو دم الحيوان ، قرمزي أو قان وله رائحة تجذب القطط والكلاب فتلغ فيه . وحين يهيلون التراب على الدم ، يستل الجزار مدية صغيرة حادة كشفرة الحلاقة .

ينسلت الجلد عن اللحم كالثوب ، في تؤدة وهدوء . والجزار حاذق في فعل ذلك . وقد يعمد إلى وضع يده بين الجلد واللحم ، بعد أن يضع المدية المدماة في فمه ، وفي ضربات خفيفة ينحسرالجلد ، ينحسر في صوت اشبه بنزع اللصقات الصمغية عن ظهر والدي . وهكذا ، قطعة قطعة تأخذ اللحوم طريقها إلى حيث ينبغي أن تكون : تجفف الأضلاع على حبال الغسيل . يقدد اللحم الأحمر ، وتذاب الشحوم . ثم توضع كلها في الصفائح . يستهلك الأهل محتويات بعضها ، ويختمون البعض الآخر بالقصدير لأيام الشتاء .

وفي هذا الموسم ، حيث تتراكم النفايات من العظام والهمل في الحقول ، تكثر الحدآت الصغيرة ، والضخمة الشبيهة بالديكة الرومية . نراقبها من بعيد ونخشاها ، نراقبها وهي تنقر الغربان كلما اقتربت من الجيف . وحيث نستثيرها في حركة عصبية ، تفرد أجنحتها الكبيرة وتعلو في كبرياء مدهشة . ولأن الحقول قريبة من البيوت ، متشابكة معها أو متداخلة ، يبدأ طقس ليلي خاص ، طقس من بنات آوى . طقس صاخب يخيفنا ، نحن الصغار ، لكنه ينثر على الأرض الصامتة الموحشة رنيناً من الحياة .

وابن آوى ليس جباناً قط كما يشيعون . إنه شرس حيث يتوجب أن يكون شرساً . اتعرف ذلك يا صاحبي ؟

اسأل « حسن الصوفي » الذي دهم حيواناً من هذه الفصيلة نهاراً .

كان الحيوان شارداً ، فابن آوى امير في الليل فقط . طارده « حسن » بحصانه وبخيزرانة طويلة . كان يضرب الحيوان الشارد كلما اقترب منه ، فيقفز ابن آوى قفزة تصل فيها مخالبه إلى عيني الحصان . ويقول « حسن » أن عراك ابن آوى دام ساعتين ، إلى أن سقط من الإعياء ، فوطأه بحوافر حصانه حتى الموت . و« حسن الصوفي » ، حين يصف شجاعة إبن آوى ، لا يبالغ . اتسألني لماذا ؟ لأن « حسن الصوفي » كان يغطي وجهه بحطته ويدهم – مداهمة الموت الأخيرة – قرى ابن عباس البدوي . يطلق النار من العراء المكشوف على البيوت ، وعلى المختبئين خلفها ببنادقهم ، ثم ينجو ، سائقاً امامه قطيعاً من الغنم .

وكان « حسن » لا يبتعد بالقطيع طويلاً ، خشية أن يلحق به المطاردون ، بل يؤثر أن يترك ، بعد كل فرسخ ، قسماً منه . إلا أنه يحتفظ ، أخيراً ، بنعجتين أو ثلاث ، وهذا ما يكفيه .

... كان زمن نهب ، يا صاحبي ، في أواخر هذا القرن . وفي أواخر هذا القرن ، أو أقله ، كنا اطفالاً منذورين للنهب .

فاصل ثالث

(في الحريق وفي الصيد)

كنا ننقل الماء في صفيحة صدئة ، راكضين بين النهر وجحر « الخلد الأعمى » . نصب الماء في فتحة الجحر ونعود فنملأ الصفيحة ، ونعرف اننا لن ننتظر طويلاً .

بعد حين يطفح الجحر بالماء . تعلو فقاعات صغيرة ، ورويداً رويداً يخرج « الخلد » المبتل . و« الخلد الأعمى » أعمى بالطبع ، لكن حاسة الشم القوية لديه تعطيه بصيرة لا يصطدم معها بشيء . إلا إننا نحيط به اخيراً . نمسكه من ذنبه ونضعه في الصفيحة .

هذه هي طريقتنا في التقاط « الخلد » ، وفي التقاط « يرابيع » الحقول . واللعبة لا تنتهي عند هذا الحد .

يلهث الخلد مذعوراً ، ونبتهج لذعره . نحفر حفرة واسعة ونملأها بماء النهر ، ثم نطلق « الخلد » فيها فيسبح من ناحية إلى ناحية ، وكلما همّ بالخروج دفعناه إلى الماء

بعصا . لا تمضي ساعة إلا ويكون قد انتفخ كالقربة فتهدأ حركته . يحاول الخروج في يأس ، وحين يعيا عن ذلك ينهار . ساعتئذ تنهال عليه حجارتنا . يفتح فمه المدمى ويغوص ليطفو جثة هامدة . وهذا ما نفعله بـ « اليرابيع » أيضاً . لكن جحور « اليرابيع » متعددة المخارج ، ويبعد بعضها عن بعض مقدار مترين ، وكلها متصلة من تحت الأرض . لذلك نسد الجحور جميعاً ، إلا واحداً ، حيث نصب الماء فتخرج الواحدة تلو الأخرى منتفخة من كثرة ما ابتلعته .

كنا صغاراً آنئذ ، صغاراً يلهون بمراقبة « اليرابيع » وهي تخرج من الجحور رافعة قوائمها الأمامية . تتلفت سريعاً وتحك مناخيرها في حركة مضحكة .

كان همنا أن نتصيدها لنلهو بعذاباتها حتى الموت ، لكن سكان القرى كانوا يأكلونها ، يأكلون « يرابيع » الحقل كما يأكلون القطا والقنافذ .

وللقنافذ عندنا — نحن الأطفال — ساعات لهو لا تخرج منها إلا مسلوخة .

كنا نمضي ، بعد المغيب ، إلى العراء . نتحين الليالي التي يتكور فيها القمر . وحيث يبدأ القمر اكتساحه تبدأ القنافذ اكتساحها . والقنافذ بطيئة الحركة بعامة ، لكن دروعها الشوكية تجعل الإمساك بها مسألة شاقة . بيد أننا

كنا نحتاط فنجلب معنا القباقيب . نضعها في ارجلنا وندوسها . وكلما اشتد الضغط على القنفذ نفر رأسه خارج الدرع . حينئذٍ لا نحتاج إلا إلى سكين حــادة . يرتخي الدرع بعد الذبح ، فنشقه من بطنه ، ونقشره كالموزة .

لكن القنافذ و« اليرابيع » المسلوخة والمنتفخة تعود حية في احلامنا . تعود مجنحة ولها اذيال السحالي . ونهذي في الليل ، نهذي فيوقظنا أهلونا ، فلا نغفو بعد ذلك إلا وقد طلع الفجر المؤنس . إلا أن حيواتنا — نحن اطفال الشمال العاري — لا أنس فيها غير صرير الزيزان ، وخشخشة الزواحف بين العشب اليابس .

ولأننا خلقنا هكذا ، كنا نحاول أن نخلق ، بدورنا ، من هذا اليباس غطاء للحلم ، فنجتمع في الخرائب « الفرنسية » ، وهي بقايا بيوت أو ثكنات من عهد الإحتلال ، لصق نهر « الجغجغ » ، ولصق الطاحونة المائية الوحيدة ، التي لا تزال حية بفعل الحركة العمياء لبغلين يطحنان في دورانهما القمح والحياة تحت الرحى . وهناك ، في الخرائب تلك ، كنا نلف الشاي السيلاني الذي نسرقه في ورق الدفاتر ، ونشعل اللفافات مقلدين الكبار . لكن المقامرين المتسكعين كانوا يزاحموننا على مأوانا .

والمقامرون ، اولئك ، فتيان يرئسهم دائماً أحد الزعران الكبار . يجتمعون في الخرائب ليتقاسموا ما غنموه من القرويين السذج بألاعيبهم . وهم عتاة ، يطردوننا حين يأتون . ولا ينقضي نهارهم في الإقتسام من دون أن ينال أحدهم طعنة في خاصرته أو ظهره . لكنهم ينجون دائماً من الموت ، إلا « رشاد الأحول » ، الذي لم يكتف زميله بطعنه مرة واحدة ، بل شقه من الصدر حتى البطن ، ومن الخاصرة إلى الخاصرة . ظل يصرخ — وهو ملقى وقد اندلقت احشاؤه — خمس ساعات فلم ينجده أحد . نزف آخر قطرة من دمه ومات . وظللنا نحن الأطفال نسمع صراخه مدى شهر في أحلامنا ، بل في يقظتنا أيضاً ، حين يصبح الظلام كثيفاً كجدار في تلك الأرض البخيلة بالمصابيح .

لكن الخرائب « الفرنسية » تظل ملاذاً ، برغم خوفنا من الخرائب ، بل خوفنا من كائنات الخرائب ، وهي كائنات نستشعرها هائمة حولنا ، تلامسنا أنفاسها أحياناً ، أو نكاد نجزم أننا نسمع وشوشاتها : إنها لامرئية ، إنها مسوخ ماض لا يعرفه إلا الكبار ، إنها غيلان ومردة بيضاء تماماً ، لها عيون مشقوقة حتى آذانها ، وتتهيأ في أي شكل تختاره . لكن « أوسمانو » يقول لا تخافوها ما دام معكم دبوس معدني ، أو إبرة خياطة . ونقول : « أوسمانو » كيف ؟ فيجيب : إنها تخشى الإبر ، أسرت جدتي أحد هذه

المسوخ اللامرئية حين غرزت فيه إبرة الخياطة فأصبح طوع بنانها .

... و « أوسمانو » شاب محبط ، طلب يد ابنة عمه فرفضه عمه لانه أزعر يعيش من الحرام . وأمام هذا الرفض قـرر أن يعمل بعرق جبينه فاشتغل ماسح أحذيـة . و « أوسمانو » ينتمـي إلى فرع من الأكراد يلقبون بـ « كولي » ، والكوليون ذوو بأس ، ينتصر بعضهم لبعض حتى الموت .

كان « الكوليون » عتالين جاؤوا من تركيا . اغتنى بعضهم وظل البعض الآخر على حاله . يتمسكون بالفضيلة ولا يقيمون وزناً للمال أو للجاه . و« أوسمانو » الكولي محبط ، ليس من فقره ، بل من ماضيه .

و « أوسمانو » يجمعنا — نحن الصغار — من حوله ، فيسرد وقائع حصلت وأخرى لم تحصل قط . وحين يجمعنا نفتح أفواهنا دهشين من حكاياته : تعلقت المسوخ اللامرئية بدراجته في مكان قفر بين قرى « عامودا » . هذا ما يقوله ، ويضيف : أن الجرأة وضبط النفس هما ، وحدهما ، سلاح المرء في مواجهة الكائنات اللامرئية ، والجبان يسقط صريعاً من الذعر . ويقول « أوسمانو » أن جدته حين أسرت أحد هذه الكائنات بابرة الخياطة ، صار الكائن اللامرئي مرئياً ، أليفاً ، يضع يده على جرار السمن فتفيض الجرار ،

وتظل تفيض حتى تأمره الجدة بالتوقف فيقف . ويقول « أوسمانو » أن جدته أطلقت الكائن ، بعد سنين ، وبعدما أقسم اليمين على الكف عن اخافة البشر .

نعم ، اطلقته . نزعت منه ابرة الخياطة وأطلقته (لم نسأله قط أين غرزت الإبرة ، وكيف) . وبين الحكاية والحكاية يضع « أوسمانو » يده في جيب سترته الداخلي ويسحب صورة غامضة : فتاة شقراء تجلس على ركبة « أوسمانو » ، وأمامه طاولة عليها بعض الزجاجات والكؤوس . نعم ، إنها صورة غامضة لنا ، نحن الأطفال ، لكن « أوسمانو » يوضح الأمر : « كنت في اسطنبول ، وهذه صديقتي ... » ، ونصرخ : « يا ألله ... أنت بارع أوسمانو ... شقراء ! » وينظر بعضنا إلى بعض ، أو نسأله : «أتعرف صديقتك اللغة الكردية؟ » ، وينظر إلينا « أوسمانو » في استخفاف : « إنها متمدنة جداً جداً » ، والمدنية ، كما يفهمها « أوسمانو » ، هي ثوب قصير ، ووجه سافر متبرج ، ولغة غريبة . والحق معه ، فثياب أمهاتنا طويلة ومعقدة جداً ، وهن لا يستعملن أحمر الشفاه ، ولا يفقهن أية لغة في الأرض . « يا لأوسمانو العظيم » نهتف في سريرتنا .

... وننسى « أوسمانو» ، ننسى عمه الذي جاء من تركيا هارباً ، حين وقف ذات مساء على باب « أحمد

سالو». وقف شاهراً خنجره المعقوف، فخرجت من تحت يده اثنتا عشرة جثة. عشرة رجال وامرأتان. ونحن أطفال، والأطفال لا يسألون عن أسباب المجزرة، بل يعجبون باليد الجسورة التي لا تخذل صاحبها حين تهوي بمنجل أو بخنجر.

ولأننا معجبون بالخـــارق، بالجسور والقوي، نسرق الزيت وندهن به أجسادنا الناحلة على ضفة النهر، نقوم باستعراضات مضحكة، إستعراضات رياضية ليس فيها عضل بل عظام. وننزل إلى الماء بعد الإستعراض فلا يزول الزيت. ندلك أجسادنا بالطين وبالأشنيات الخضراء القاسية ولا يزول الزيت. يتبقع النهر ولا يزول الزيت. نرجع إلى بيوتنا وثيابنا الداخلية البيضاء تحولت إلى ما يشبه الجلد الأسمر المحروق. نخلعها في مكان منعزل لنلقي بها بعيداً بعيداً، ثم نرتدي، على غفلة من أهلنا، ثياباً داخلية نظيفة. ويمضي وقت طويل قبل أن يكتشفوا النقص الحاصل في غياراتنا.

لكننا، هناك، على ضفاف الخابور، لسنا مجبرين على ممارسة هذا التمويه. فحيث نكون بعيدين عن أهلنا، نكون بعيدين عن الرعب أيضاً، بعيدين عن ذلك الإضمحلال الراعب لطفولتنا. ولا يأتي هذا الموسم المترع بالحرية إلا صيفاً، آن يستدعينا عمنا الأكبر إلى العناية بمستودعات الحبوب التي يملكها قرب الخابور..

ومشاركتنا هي مشاركة صغيرة ، تقتصر على جمع الحبوب المتسربة من الأكياس المثقوبة كلما حملت الشاحنات أطناناً منها عن الأرض . ويوماً يوماً ندرك أننا جمعنا من تلك الحبوب ما يكفي قوت عائلة كاملة طوال السنة .

كانت الشاحنات تأتي ممتلئة فتفرغ حمولاتها ، أو تأتي فارغة فتمتلىء بحمولاتها ، وبين المجيء والرواح يأخذنا ماء الخابور في نزهته . والخابور امير بين الأنهار ، عريض ومتدفق كعاصفة . تتزاحم على ضفتيه اشجار الصفصاف المتصلة بشبكات من العليق ذي التوت البري الأحمر ، أو يرخـــي شجر الغرَب غصونه ، ويرسلهـــا على المـــاء كشعر محلول . كنا نختار لنزهاتنـــا الأماكن القريبة من النواعير . نخلع ثيابنا وننزل إلى الماء ، حاملين حبات من البطيخ الأحمر . وحين تبترد تلك الحبات نقتسمها لنبترد نحن في هاجرات الشمال التي يذوب فيها اسفلت الطرق نهاراً .

وهناك قرب النواعير وأنينها المتواصل ، كانت تحط القرويات كأسراب من الحجل ، هاربات من الظهيرة إلى الماء . والقرويات يعملن في الحقول كمياومات . يقطفن محاصيل الباذنجان والفلفل واليقطين والخيار ، مقابل جزء مما قطفن . كل يوم يأتي فوج جديد ، وكل فوج يهرول إلى الماء في الظهيرة . ذلك دأبهن .

كن ينزلن إلى الماء بأثوابهن الطويلة ، بعد أن يتحررن من المناديل . والقرويات حافيات عادة ، ولا يرتدين ثياباً داخلية .

كنا أطفالاً آنئذ ، لا تعنينا اجسادهن التي التصقت بها الأثواب فاتخذ كلّ تكوير فيها أنفلاتاً عذباً . ولا تعنينا مداعباتهن بعضهن لبعض ، أو بعضهن لنا — نحن العراة تماماً . وكانت اثوابهن تطفو على الماء ، تعلو حتى اعناقهن حين يغطسن وإذ ينهضن يرخينها في رفق . وكنا نستغرب أن يكون للمرأة شعر في جسدها ، ونظنه مقتصراً على الرجال . لكن الغريب حقاً هو انهن كلما اكتفين من لهوهن الصاخب في الماء ، خلعن اثوابهن ونشرنها على العليق لتجف ، ويبقين عاريات ، يتخفين وراء الشجر حيناً ، أو يبرزن من دون اكتراث بالعيون التي تستقرئهن . آنئذ كنا نتساءل عن اسباب نزولهن إلى الماء بأثوابهن ، ما دمن يجففنها بعد ذلك وهن عاريات .

بيد أن العداوة كانت تستفحل بيننا وبينهن ، حين يختفي ثوب احداهن أو منديلها . كن يتهمن بعضهن بعضاً ، وحين يتعبن من الجدال يتهمننا فيجررننا من النواصي فنعضهن ، وإذ نفلت ونبتعد — ولا نزال عراة — نؤدي حركات بخواصرنا أشد وقعاً عليهن من الشتائم . ونتمادى في حركاتنا لأن ذلك يغيظهن : نمسك بأغصان يابسة ونضعها

بين أفخاذنا صارخين : هيا يا بنات الـ ... فيقذفننا بالحجارة . وبعد زمن من هذا اللهو ، زمن قصير ، كرهنا الخابور لأنه أختطف منا عبد المجيد جاجان . بحث اهله عن جثته أربعة أيام ، وحين وجدوه كان منتفخاً كالطبل ، وقد اكلت عينيه الأسماك .

لكن كرهنا للخابور لم يوقف الخابور ، ظل اميراً بين الأنهار ، اميراً صاخباً يجمع من حوله قرى صاخبة ، قرى تتقاسم الجغرافيا والفاكهة والأعراف ، بدءاً بالأشوريين ، وإنتهاء بالأكراد واليزيديين .

كانت القرى الأشورية لا تبارى في زراعة الكروم ، أما القرى الكردية واليزيدية فلا تبارى في الرعي وتربية الدواجن ، وفي بعض المزروعات الصغيرة كالقثاء والقطن . ولم يكن كل هذا لافتاً للنظر قياساً إلى غرابة اليزيديين .

كنا اطفالاً آنئذٍ ، لا يعنينا التاريخ الذي يصنف اليزيديين فرقة باطنية ، لا يعنينا منشأهم ، أو دور بريطانيا في صنعهم اقلية من اقليات الشرق كما اعتادت أن تفعل بعالمنا الغارق في ماضيه حتى الإختناق ، أو الراكن إلى الرضا حتى الإختناق . كنا ما بين مستغرب أو مندهش ، آنئذٍ ، باولئك الرجال الذين يضفرون جدائلهم كالنساء ، ويرخون شواربهم الكثة فلا تبين شفاههم . كانوا قذرين لا يستحمون ، ويقدسون الملك الطاووس ، أي الشيطان

الأكبر كما يقولون .

ولعمي ، صاحب المستودعات قرب الخابور ، شريك يزيدي يدعى « الحاج » . لم يحج إلى الكعبة قط ، لكنه يدعى « الحاج » ، ولا نسأل عن ذلك . و« الحاج » تاجر حاذق ، كنا نحسه قائماً كل ليلة ، يتمتم بصلاة غريبة ، حين نهجع جميعاً في قاعة أشبه بثكنة . لكن في النهار ، كنا نعمد إلى ألاعيبنا مع هذا الكهل . نشتم الشيطان ، أو نتعوذ منه كلما مررنا به ، فيحمر وجهه ، ويتعوذ منا . نبصق على الأرض في تعمد ظاهر ، لأن الشيطان يسكن الكثافة : الظلام والأرض ، فيتعوذ منا . وأخيراً نرسم من حوله دائرة على الأرض الترابية . واليزيدي لا يخرج من الدائرة حتى الموت ، أو حتى يمحوها من رسمها . يصرخ «الحاج» في فزع واضح : امحوا الدائرة يا أولاد الكلب . ونصرخ فيه : أنت إبن الكلب وسليل الشيطان . ويهب من الكبار ، أخيراً ، من ينجد « الحاج » فيمحو الدائرة ، ويطاردنا .

يومها يقاصصنا عمنا ، يقاصصنا في عنف يصل احياناً إلى إعادة احدنا إلى أهله ، ويعتذر عنا إلى «الحاج» الرهيب .

وعودتنا من الحرية تلك ، من حرية الخابور الأمير وضفافه التي تحاذي جبال عبد العزيز حيث تكثر مغاور الحمام البري ، هي عودة إلى الرعب الرتيب ، عودة إلى الغبار والقصاص ، عودة إلى طفولة مضرجة بخريف المدينة

ومدارسها ، وبالمطر الذي يجرف غبار الصيف من الأعالي فلا يتساقط إلا الطين :

بيد أننا ، حينة الرجوع ثانية إلى قفص الكبار وسلطتهم العريقة ، نفتح مجرى لأهوائنا ، مجرى للخراب والعذابات . نحطم ما تبقى من الطفولة ، وما تبقى للكبار من حلم بطفولتنا . نرش الكاز على قطة ونشعل ذنبها . تركض القطة في هياج مجنون . تصطدم بجدران البيوت وتقفز امتاراً عن الأرض . يمتد اللهب من ذيلها إلى جسمها كله . تظل تركض ونركض خلفها . تصل إلى البيادر لصق البيوت قبل أن تنفجر جمجمتها كما ينفجر البالون . وما اسهل اشتعال البيادر بدورها . كومة كومة يمتد الحريق ، ومتراً متراً يرتفع اللهب .

نتراجع لننذر الكبار وكأن لا شأن لنا بما جرى . يخرج الكبار بدلاء المياه ، وحين لا تنفع المياه تأتي الرفوش لتهيل التراب على النار . ووقت ينشغل الكبار برفوشهم ، والنساء بالمراقبة ، نتسلل نحن إلى حوش « عفدال » . نربط المفرقعات إلى أذيال العجول ونفتح البوابة الخشبية الضخمة . نشعل الفتائل ونسرع خارجين لنعدّ : واحد ، اثنان ... ولا نكمل ثلاثاً إلا ويدب الهياج في الحوش : تدور العجول حول نفسها فتخلع الأوتاد من الأرض ، وتنطلق عبر البوابة مجنونةً .

يقضي آل « عفدال » سحابة نهارهم مطاردين العجول الشاردة في الأزقة وفي الحقول ، وحين يظفرون بها يلعنون الشرق والغرب والقمر والنجوم ، من التعب .

ونلعن القمر والنجوم ، نلعنها نحن أيضاً ، صارخين في عواء خافت كحيوانات مطعونة على اقدام الهضبات ، متجهين صوب الظلام الساحر ، الظلام الذي يمحو المدينة ويحيلها بحيرات يتقصف قصب ضفافها من الركض المجنون لأجساد نصفها أقدام جواميس ، ونصفها نباتات الحرشوف . نصفها « يرابيع » ونصفها الآخر شعر مسدول كشعر النساء ... ونمعن في الإتجاه ذاته ، كأنما اقدامنا رياح مهبها هو المهب الخفي بين « عامودا » و« حلكو » : غبارغبار ، والأرض لا تتكشف لصواري طفولتنا إلا ثوراً يحمل على قرنيه كرة الكبار الموتى .

فاصل رابع
(في انهيار بريفا)

أنت ماذا يا « بريفا » ؟ ، أنت طعنة من الطين . أنت خفقات الطين وقلبه الغباري الشارد . أنت جناح القرى يا « بريفا » ، يا سحابة غبراء ناحلة تلمس الأرض في خجل، وتتكوم بيتاً بيتاً حول نبع خفي من الغبار والتعب . أقرية أنت حقاً ؟ أم صليل الظلام حين رسا أول مرة في الأرض فأنبت الوحشة ؟ . ذاهلة أنت يا « بريفا » ، ذاهلة كأنما فاجأت نفسك ، ذات يوم ، في مرايا القرى ، فرأيت شبحاً لا قدمان له ، شبحاً زاحفاً بين الخرنوب وأوراق الكمأ ، يمد يديه ، في توسل أخير ، إلى غيب يقود أباطيله كالثيران ولا يلتفت . إيه « بريفا » ، يا شبح قرية ، ويا نافذة التراب على التراب ، لم يكن ليسمع بلك أحد ، لولا « بوغي » ، لولا هذا المارد الذي خلقته الأحاديث أو خلق الأحاديث . لم نر « بوغي » الذي أضيفت إلى اسمه كنية « بريفا » فصار

« بوغي بريفا » . لم نره نحن الأطفال ، لكننا رأينا قبره على قمة هضبة « موزان » .

سلكنا طريق الهضبة من قرية « موزان » ذاتها ، بين شجيرات العنب ، خاطفين العناقيد السوداء هنا وهناك ، ناثرين حباتها وراءنا كمن يترك للقادمين أثراً لا يقود إلا إلى العبث . وكانت العناقيد حلوة جداً ، ذات حبات صغيرة يعلوها من الغبار ما يعلو الأرض . وكنا نلتهمها غير عابئين بذلك الطعم المزيج الخاص ،أو نعتصرها بين أيدينا من البطر فتستحيل إلى عصارة من الطين الدبق الأسود ، ومن ثم نغسل أيدينا بتراب الطريق الذي لا يلبث أن يختفي على أطراف الهضبة فنسلك أخاديد السيول الضيقة التي توصلنا إلى القمة بعد جهد .

وقمة هضبة « موزان » منبسطة ، ملأى بقبور لا معالم لها ، ونتجنب – نحن الأطفال – أن نطأ أياً منها خشية ايقاظ الموتى ، وكذلك نتجنب الجحور المنتشرة هنا وهناك ، لأنها خاصة بحيوانات الموتى ، التي تخرج بجرائها ليلاً فتأكل الجثث وتعبث بالعظام . وإذا تشبع ، ترفع حناجرها بعواء ممزوج بأنين الليل ومخلوقاته .

وفي وسط القمة المنبسطة ، في وسط القبور التي تساوت بالأرض فما يبين منها إلا شواهدها ، في وسط ذاك السكون المرهق السكران الذي لا ندامى له ، يتمدد « بوغي بريفا » مغطى برقائق من الخزف ، على طول ثلاثة أمتار : انه

الأطول حقاً ، والاعرض حقاً ، لكنه مهمل إلى درجة يرثى لها ، وكان حرياً بالندابات اللائي شيعنه ، ذات يوم ، أن يبقين صاعدات هابطات عن الهضبة الف عام ، وأن يتصل عويلهن كما تتصل أقدام الهضبة بجذور الشمال ، فما هكذا ينتهي « بوغي بريفا » ، وما هكذا يتلاشى صوته الذي يصعد ، رويداً رويداً ، من أعماقنا (نحن الواقفين أمام عظمة الخراب بعيون تملأها ثلاثة أمتار من جسد مغطى برقائق من الخزف) . وصوته واثق — كما يشهد الرواة — وهادىء كجسده الهادىء المديد . ويضيفون انه كان يقطع القرى راجلاً ، إذ لم يصمد تحت ثقله أي بغل ، وأشد البغال كان يمضي به خطوتين قبل أن ينحني عموده الفقري فيلمس بطنه الأرض .

وأسهب الرواة في الحديث عن شؤون أخرى في حياة المارد ، عن دلوه الخاص الذي يسع عشرين دلواً عادياً . يشده « بوغي » وحده من البئر ويسقي الماشية . عن تناوله ما يسع تنوراً كاملاً من الأرغفة . عن الأبواب العالية التي تضيق بطوله فينحني ليدخلها . عن كلبه الذي يعادل بضخامته الحمار ، فما يظهران على التخوم إلا معاً ، شكلين خرافيين لم تحجبهما زوبعة قط ، ولم يطلع فجر إلا هما يخرجان من الاخدود الكبير شرق « بريفا » ، من الاخدود الذي كان نهراً ذات يوم ، وأمسى زريبة صيفية لغنم « بوغي » وأكباشه . ويتحدثون عن بقائه اعزب فلا نفقه المسألة كما

ينبغي ، لكن الواضح انه لم يحرج أحداً بطلب أنثى .

كان « بوغي بريفا » هادئاً إلى حين سرت همهمات خفيضة بين أهل القرية : « الأقوياء يقتسمون الأرض » . وكان جديداً أن يأتي أقوياء غامضون على أفراسهم ليقولوا : « هذه تخومنا ، وهذه تخومكم » . كانت الأرض منبسطة لا حدود فيها ، منبسطة واضحة كالأسئلة ، وها هي تمسي ملتوية كأجوبة غريبة .... وضاقت الأرض من حول « بريفا » ، حتى ما عاد الناس بقادرين على الخروج بأغنامهم أكثر من فرسخ واحد . آنئذ خرج « بوغي » الواثق على هدوئه الواثق . حمل حجراً يبلغ قطره متراً أو يزيد ، وسار يواكبه الرجال . ويقولون أنهم تعبوا من المشي وما تعب « بوغي » . ويقولون جلسوا يمسحون عرقهم في الظهيرة ولم يتوقف « بوغي » . ويقولون رؤي يمضي حتى اختفى عن العيـــون . ويقولون وصل « بوغي » إلى مقربة من بيوت أولئك الأقوياء الغامضين ، الذين أنذروا الناس باقتسام الأرض ، إذ ذاك رمى الحجر عن كتفه قائلاً : « هذه حدود بريفا » ، وأقفل راجعاً . ويقولون لحق به أحد الأقوياء على حصانه ، وحين حاذاه دفع « بوغي » الحصان فسقط أرضاً ، ثم أمسك بإحدى قوائمه فكسرها ، هاتفاً بالرجل : « لا تلحق بي » ، فلم يلحق به أحد بعد ذلك .

لكن ، لا أحد يقول لنا ماذا يفعل قبر « بوغي بريفا »

على هضبة «موزان»، وهما قريتان ثمت مسافة طويلة بينهما؟، أو ماذا حل بكلبه المارد مثله، الذي شوهد مراراً على قمة الهضبة، رافعاً صوته بعواء مرير، مدى ثلاث سنين، ملتمعاً تحت ضوء القمر أو ومض البروق؟. مات على ما نعتقد نحن الأطفال، مات مثل صاحبه، دونما صخب أو نذير. أوتعرفون كيف مات «بوغي بريفا»؟.

يقول الرواة أن وباء أصاب غنم «بوغي». بدأ صوفها يهر وأجسامها تتقرح، ثم هوت الواحد تلو الآخر.

ذات فجر لم يخرج «بوغي» من الأخدود النهري. رأوه مسنداً ظهره إلى حافة الجرف وقد جمع حوله الكثير من الصوف المتسخ، بينما راح كلبه يحوم ويعوي. ونسأل — نحن الأطفال — أكانت عيناه مغمضتين أم مفتحتين فلا يرد أحد.

... ونهبط الهضبة الغضارية، التي تفتحت مرات عديدة عن جرار من الكهرمان الثمين والفضة، متجهين عبر السهول الشرقية الجرداء إلى المدينة، لكن المدينة لم تعد ذاتها، بل هي أشبه الآن بثكنة لخفر البادية، أي «الهجانة» كما يسمونهم. ونحن لم نسأل قط عن سبب وجود هؤلاء العسكريين البداة، بيد أنهم أفصحوا، بجلافة وقسوة، عن ترتيبات خفية هيأها «الكبار» للجزيرة.

كان زمن «اصلاحـــات»، زمن اقتسام مدهش

للأرض بين الدولة والناس ، لكن الناس تنازلوا عن حصصهم للدولة حين لم يجدوا البذار . وهكذا بدأت الامبراطوريات الصغيرة في الانهيار ، امبراطوريات الأقوياء وكذلك أحلام الصغار الضعفاء : كل شيء مضى كالسيل يجرف آخر معالم الماضي بطفولته وبريقه الخرافي الجميل . وحين هدأ السيل كان كل شيء مغطى بطين أحمر لا أثر للحياة فيه .

انقرض القمح في فردوس القمح ، وبتنا — نحن الأطفال — نتزاحم في الصباحات على أبواب الأفران ، وقد نقضي سحابة من النهار قبل أن نطول إلى الأرغفة ، لأن « الهجانة » ذوو أولوية ، وياما قذف هؤلاء العتاة بطفل أو بشيخ خارج الزحام ، ليأخذوا مكانه في الصفوف . وياما اجتازوا الصفوف وصفعوا الفرانين ، أو داسوهم بالأحذية العسكرية حتى ينفر الدم من الآذان والأفواه .

لم يعد ينفع الأقوياء كثرة أنصارهم بعد مجيء «الهجانة» ، ولم ينفع الضعفاء ضعفهم بعد مجيء « الهجانة » ، وكان اقتحامهم للمدينة اقتحاماً ذا توقيت مواكب لتوقيت انقراض القمح ، ومواكباً لأسئلة الناس : « أين خبزنا » ؟ .

كنا أطفالاً آنئذ ، يأخذنا الدهش من « عنود » — الانثى التي ترتدي حطة كالرجال ، ودشداشة كالرجال ، وسترة كالرجال ، وتتمنطق بمسدس كالرجال . ولها سياراتها

ومرافقوها . لكن « عنود » ، ابنة كبير شيوخ البادية ، لم يدم مجدها طويلاً بعد مجيء « الهجانة » . وعرفنا ، مع تصعيد موجة « الاصلاحات الجميلة » ، وإذ صار لنا حكمنا على حاضر خرافي ، ان كل شيخ من شيوخ البادية ، وكل قوي بأتباعه في الماضي ، أعيدت اليه امبراطوريته .. أما الضعفاء فيئسوا حتى العظم ، ومع اليأس بدأت تتكوم جثث « الهجانة » في المنعطفات والأودية .

ضجت الناس من البطش اليومي ، ومن هؤلاء الذين يرتدون حطـات حمراء ولا يدفعون ايجـارات بيوتهم . ضجت من الذين يأخذون رغيفها الصباحي ، ويقتحمون البيوت إذا تشاجر طفلان . وحين أدركوا أن هؤلاء جاءوا ليمحوا الأسئلة في الأفواه ، نصبوا لهم الفخاخ الليلية، ونثروا بالرفوش والمناجل أعضاءهم . ولما تفاقم الأمر ، حمل « الهجانة » أحلامهم الصحراوية الممتزجة بالبعر إلى البادية ثانية ، ولم يعودوا بعد ذلك قط .

لكن الامبراطوريات الصغيرة ، التي تداعت ، تداعت. ومع هـذا التوافد الكثيف للكآبـة السماوية ، بدأت المقاهي تنفر طالعة من زاوية هنا وزاوية هناك . وكانت مقاهي مسقوفة بحصر القش ، يجتمع الرجال فيها عصراً ، أو يقضون أكثر الليل على ضوء الفوانيس ، صارخين لاعنين ورق اللعب الذي يجعل حظوظهم أشد مهزلة ، أو

يقذف بعضهم بعضاً بكراسي البوص ، ومن ثم ينجلي الأمر فيعودون إلى صخب وصراخ لا عنف فيهما .

بدأ كرهنا صغيراً ونما ، يوماً بعد يوم ، ليشمل المقاهي ، وقطار المدينة الوحيد ، ومطاحن القمح الآلية ، ومصنع الجليد ، والمطار ، والطائرات ، والنهر ، وبيوت الضواحي الطينية ، والمآذن ، والفقر . كرهنا كل شيء لأننا لم نمتلك — وسط أحلامنا الغامضة بامتلاك لعبة ما ، أو حقيبة جميلة — إلا عبثنا الصارخ ، فأطلقناه كغيمة مسرعة ، وانطلقنا مع « عابو » الأعمى الذي يعرف الأرض خطوة خطوة ، والمدينة زقاقاً زقاقاً ، ويعرف المسالك الخطرة إلى تركيا ، ويغني ككلب مبحوح .

و « عابو » في الثلاثين ، دمث ذو صوت خشن أبح . لم يستعمل ، وهو الأعمى ، عصا قط ، بل يقوده طفل عادة ، أو يتقرى الحيطان ، ويجتاز عرض الطرق التي يعرفها عن ظهر قلب . و « عابو » لا يخاف . « عابو » ملك النهر . ونتسابق راكضين على الضفتين حين يهبط عارياً إلى الماء . يغوض حتى رقبته وهو يتحسس الأعماق الضحلة بيديه . وبين الفينة والفينة يرمي الينا بشبوط أو رعاد نهري . وإذا كان الصيد ضئيلاً ، يعمد إلى الجحور . يحشر يده فيها ويخرجها جاذباً سلطعوناً أو حنكليساً . يرفع الغطاء العظمى عن ظهر السلطعون ويقول : « انظروا ، هذه ساعته اللخمية» .

أو يقول : « احذروا ذيل الحنكليس فهو سام » ، ويقطع بأسنانه مقدار عشرة سنتيمترات من ذيله . وكان « عابو » يلتقط الافاعي أيضاً . يغوص بها تحت الماء ليمسكها من عنقها ، وحين يطفو يصيح : « هاتوا قميصي » . نعطيه القميص فيضعه « عابو » في فم الافعى ، ثم يشده فيخلع أسنانها . بعدئذٍ يضعها في جيبه آمناً ، ويخيف بها الآخرين .

... ونمضي وراء « عابو » لنطوف بالمقاهي كلها . يقول للطفل الذي يقوده : « دلني على فلان » فيدله . يقترب « عابو » من الرجل ويهمس : « لي دين في ذمتك » . يضحك الرجل ويناوله نقوداً . ولا ينقضي النهار إلاّ ونجمع ما يكفينا جميعاً لدخول السينما . يجلس « عابو » في الصالة ووجهه إلى الاعلى . يسألنا بين الحين والحين عن مجرى الاحداث ، وإذ نسردها له تنفرج أساريره ، أو يقهقه فيعدينا بالقهقهة .

و « عابو » زوج شحاذتين ، جمعهما معاً في بيته الشبيه بزريبة ضيقة في الضواحي ، احداهما تدعى « شوشة » ، في ضخامة الفيل ، حافية دائماً ، ولقدميها المفلطحتين دمدمة على الأرض كدمدمة حافر الجاموس .

وهي لا تخرج من أي بيت تدخله إلا بغنيمة ، رضي أهل البيت أم أبوا . والأخرى تدعى « باسي » ، وديعة لا يجاوز ذكاؤها ذكاء دجاجة . لكن « شوشة » و « باسي » تتشاجران أبداً في الطرقات ، وأبداً تسقط « باسي » بشعرها الأشعث

أرضاً ، فتعوي .

صراع أبدي بين ضرتين ، صراع يقف فيه « عابو » على الحياد ، ويسترضي الأقوى . صراع نضرمه ، أكثر ، نحن الأطفال ، بهياجنا ، إذ نتحلق من حولهما ، ونؤلب احداهما على الأخرى ، فتتناقران مثل ديكين تتطاير منهما الخرق بدل الريش . ونذكر ، بعدئذ ، أن « باسي » ماتت ، فبقيت « شوشة » سلطانة على « عابو » وبيته .

و « عابو » لا يفوته عرس ، حاضر أبداً كما حضور الطنبور أو الطبل . والأعراس تجري – هناك ، شمالاً – في الصيف . سبعة أيام وسبع ليال . يعلو الغبار رؤوس الراقصين ، ويحيط كغلالة أنثوية بفوانيس الكاز المعلقة إلى الأعمدة ، وكذلك بعيني « عابو » البيضاوين اللتين تريان الأبعد ، تريان الدم ودورته في العروق ، وتريان الأسماء في لهاث الآخرين .

يجتمع الراقصون في حلقة تدور ، وفي وسطهم الطبالون بطبولهم التي لا إيقاع لها غير الصخب الباسل . وعلى مبعدة من الحلقة نجلس حول «عابو» الذي يسألنا : « أإبنتا عاريف هنا ؟ » ، ونجيبه : « نعم » . ويسأل : « أأولاد سطام ومهرو هنا ؟ » ، ونجيب : « نعم » . يقول عندئذٍ : « هيا نترصد البيادر » .

يعرف « عابو » أن أمراً ما يتجمع في الغبار الليلي .

فابنتا عاريف الجميلتان مشهود لهما بالتهتك . يأخذهما أخوهما الأكبر إلى الأعراس . ويعقد الصفقات هناك . وأولاد الآغيين سطام ومهرو مشهود لهم بالتهتك . لا يخفون أخبار طيشهم ولهوهم عن أحد . يحضرون الأعراس في سيارة صغيرة من نوع « اللاندروفر » ، حاملين قناني الجعة ، فيزدريهم رجال الشمال المتعففون . لكننا ندرك أن للنساء رأياً آخر ، ونظرة ينم منها اعجاب بالجسارة .

ونمضي مع «عابو» إلى ما وراء البيوت المتناثرة في الضاحية ونترصد . وإذ يحمي وطيس التراب تحت الأرجل ، وينحدر عرق الطبالين على صدورهم حتى يصل إلى الأحذية ، يغافل أولاد سطام ومهرو الناس ليجلسوا على كومة من أكوام القش الكثيرة ، بعيداً عن الصخب . ومن بعدهم ، وعلى مهل كما يتمهل القطا ، تتسلل ابنتا عاريف وأخوهما ، آتين أكوام القش ذاتها . وقتها يهمس « عابو » : « أأتوا ؟ » ، فنجيبه : « هششش » .

يقف ابن عاريف القواد بعيداً عن أختيه وأولاد سطام ومهرو ، ليراقب المسالك . وبالتناوب ، مثنى مثنى ، وعلى أكوام القش السماوي ، نرى أنصاف عراة ، من السرر فما دونها ، ونرى أفخاذاً على أكتاف الشبان ملتمعة كالخناجر .

يتقصف القش ويتأوه . يهمس « عابو » : أبدأوا ؟ » ،

فنجيبه : « هششش » .

ويرتفع النشيج المخنوق ، ويزداد صخب القش ، حتى لنكاد نعتقد أن هؤلاء غير آبهين إلا لاكتمال الدورة في هذه الفاكهة الآدمية ، وأن الف صرخة أو فجاءة لن تزحزح — في لحظة النشيج الغامض تلك — نصفاً عارياً عن نصف عار ، وأن التهتك الذي يجاهر به أولاد سطام ومهرو لم يعد تهتكاً الآن ، بل بحث مضن تنتفخ فيه عروق الرقبة قبل العثور على بداية تنتفخ فيها عروق الرقبة من جديد .

بعدئذ ينسحب الجميع ،أولاد سطام ومهرو ،وابنتا عاريف وأخوهما ، لكنهم يتركون خلفهم — على القش — تلك اللهفة المدهشة التي أتوا بها أو الأمر . ينسحبون في انكسار . وإذ يصل أولاد الآغيين إلى مقربة من حلقة الرقص يطلقون عيارات نارية في الهواء ، من مسدساتهم ، كأنما يخفون وجههم من البحث الذي لن ينتهي ، في قناع الصخب. وننسحب — نحن الأطفال — بدورنا ، حاملين أسئلة جديدة ، أسئلة تتطاول كنشيج أولاد سطام ومهرو ، وتلتمع كأفخاذ بنات عاريف .

فاصل خامس
(في الثلج والخراب)



يتساقط الثلج . ستة أيام يتساقط الثلج من الأعالي ومن أعماقنا ، يختلط الأبيض علينا حتى نرى الثلج حصاداً تتلقفه المذاري فتنثره على الأشكال . يختلط علينا فنرى بيادر بيضاء، وبغالاً بيضاء تدور حول الدريس بنوارج وحوذيين من الثلج .

ثلج في المدافىء. نار من الثلج في المدافىء ستة أيام، وستة أيام يطن من حولنا نحل من الثلج ، ويعاسيب من الثلج ، وطيور من الثلج ، وبيوت من الثلج ، وقرى من الثلج ، ونباتات من الثلج تتسلق الجدران حتى تجاوز السطوح فتمضي عالياً في الفراغ ، حاملة أضاميم من أزاهير الثلج ، ومدائح بيضاء لهذا الجنون الأبيض .

كنا نعرف كيف نتقي نحل الصيف ، آن تشتد الهاجرة ويمسي سكراناً من الغضب ، لكن ماذا نفعل بنحل الثلج

وابره الخفية التي تخترق اللحاف إلى العظام ؟ . كنا ــ نحن الأطفال ــ نستثير نحل الصيف . نضع عصاً في ثقب القفير فيخرج هائجاً فنضربه بالمذبات ، لكن نحل الثلج نحل حديدي ، فماذا يمكن أن يفعل اللحم بالحديد؟ ياالقفير الفضاء المفتوح ، ويالملكات نحله وعاملاته ، يا لجناح الثلوج : ستة أيام وكل شيء موصد بمزلاج أبيض ، بعدها تتنفس البيوت رويداً رويداً ، وتتزين السطوح بخطوط سوداء من الزرازير كخطوط الكتابة . في وسط هذا الحبر الالهي الأبيض تمتزج طفولتنا بطفولة الكبار . الكبار يسردون طفولتهم ، ونحن الصغار نصغي (يا للحنين الذي يتفتح في الثلج !) .

كان الكبار صغاراً مثلنا ذات يوم . يقول القائلون ذلك ولا نصدقهم ، لكننا نصغي كمن يود أن يسمع الأكذوبة الكبيرة كلها من قبيل الطرافة : أحقاً كان للكبار طفولة ذات يوم ؟ أحقاً كان هؤلاء أطفالاً ؟ هؤلاء الذين خلقوا ليراقبونا ، خلقوا كباراً ليزمعوا على اختصارنا ، واختصرونا ، فها نحن شدهون من أكاذيبهم عن طفولة لم تكن ، يسردونها زاعمين أنهم يفرحوننا بها ، لكنهم ــ يقيناً ــ يسردونها ليقنعوا أنفسهم أنهم كانوا كائنات وديعة في زمن ما ، زمن موغل في الجحيم .

يبدأ السرد ، أول الأمر ، عن عاصف من الثلج أشد مما رأينا ، ويسمونه « الثلج الكبير » . وهنا تختلط الوقائع .

يزعم الكثيرون – ممن يتملقون طبائع البسطاء في تمسكهم بالأصالة الرثة – أن الريفيين يعرفون التواريخ ووقائعها من دون سجلٍ . والأكيد أنهم يتقنون شيئاً من ذلك ، يتقنون معرفة مواعيد الليل والنهار ، طولهما وقصرهما . ويعرفون مواعيد المطر وهبوب الرياح ، وكذلك دورات البذور ، انهم يتقنون استقراء السنة التي يعيشونها تفصيلاً ، لكنهم ، حين يحاولون استعادة الماضي ، واستعادة التواريخ ووقائعها ، فإنما يخلطون ما حصل بما لم يحصل ، ويخلطون « سوف » بـ « كان » ، ويحيلون الحاضر إلى مصب خرافي لجداول من حصى الذاكرة . لذلك كله كان « الثلج الكبير » مرفأ كل حادث وقع قبل ذلك بكثير ، أو بعد ذلك بكثير .

يسرد الكبار ان اللحم كان يتساقط من شدة البرد عن الأقدام حتى تبدو الأمشاط العظمية . كانت الأقدام تنتفخ فيلتصق اللحم بباطن الأحذية ، وتأكل الأغنام بعضها صوف بعض من قلة العلف . ويسردون أن الصيف الذي أعقب شتاء « الثلج الكبير » كان صيفاً مجدباً دفع الناس إلى البحث عن بقايا حبوب في روث الماشية . ويسردون أن ثمن « عضو » الثور جاوز ثمن نعجة مما يباع في أيام الرخاء . ونتلقف – نحن الأطفال – المسألة بدهش بالغ : « عضو الثور ؟ » . ويقولون : « نعم ، عضو الثور ... يشويه المرء على النار قليلاً ثم يلوكه يومين ، ويتلمظ متوهماً ان في فمه طعم شواء » . ويسردون أن الناس أكلت الغنم ، وحين نفد

الغنم أكلت الأحصنة والبغال ، وحين نفدت الأحصنة والبغال أكلت الحمير ، وحين نفدت الحمير أكلت القطط . بعض الناس توقف عن الأكل ، انتفخت بطونهم ونفقوا ، وبعضها الآخر أكمل المسيرة فاستنفد الكلاب والسحالي.

... ويمضي الكبار على سردهم ، فلا نرى في ما يسردون شيئاً من طفولتنا ، فنمضي للبحث عنها في الثلج ، وفي ما وراء الثلج ، حيث تدور مغازل الرياح فتحيل القطن السماوي البارد إلى جليد صلب كالخوذة ، وحيث تدور مغازل الأرض فتحيل الكائن إلى خرافة .

عقب أيام الثلج ، وحين تشققت السهول فنفرت الحياة من الشقوق لابسة قناع برعم أو فراشة ، بدأت مواكب المريدين تقصد بيت الشيخ أحمد الخزنوي في الشمال الشرقي . ومريدو الخزنوي متعصبون له ، يعقدون حلقات الذكر طوال موسمهم ذاك ، وإذ يعودون يستأنفون حلقاتهم في البيوت . يختارون بيت الأكثر تقوى عادة ، وهناك كنا — نحن الأطفال — نضحك أو نرتعش مما يجري .

قبل عقد الحلقة يتوزع المريدون خبز الشعير الذي جاءوا به من بيت الخزنوي ، ويكون لنا نصيبنا من التبرك بذلك الخبز القاسي . يجيء ضارب الدف (يسمونه « العربانة ») ذي الحلقات النحاسية ، وتبدأ التواشيح هادئة ، ثم لا تلبث أن تكتسح قامات شجر الصفصاف علواً .

يتمايل المريدون. تتمايل الرؤوس . يختلط الكلام فيمسي همهمة ودمدمة . تتشنج الوجوه وترغي الأفواه . يتساقط البعض غائباً عن وعيه فيصرخ الآخرون : « جاءهم السر » . ونتمنى — نحن الأطفال — أن يجيئنا « السر » ذات يوم ، لكن « السر » لا يأتي . نقنع أنفسنا أن المسألة خاصة بالكبار .

يقول بعض المريدين ان الشيخ الخزنوي يمتعض من هذه الحلقات ، لكن ماذا يفعل الخزنوي وهؤلاء هم مجده ؟ انه يولم للمريدين طوال اسبوعين . يولم لعشرات الآلاف من القاصدين . السكاكين مشهورة أبداً فوق أعناق الخراف ، وتنانير الخبز مسجرة أبداً أمام أرغفة الشعير . هذا دأب الخزنوي الأعظم مجداً في الشمال كله ، والأعظم هيبة . تسترضيه الحكومات المتعاقبة كالجراد ، وتسترضيه العشائر .. وكذلك يسترضيه الأطفال الذين إذا أقسموا لم يحنثوا في القسم قط ، لأن الخزنوي يتهيأ في الأحلام فيأخذ بتلابيب الكاذبين ، أو يضغط الأعناق حتى تجحظ العيون . وياما سمعنا أن فلاناً من الناس هب من نومه صارخـــاً : « التوبة ، التوبة يا شيخ أحمد » .

... ومريدو الشيخ الخزنوي تقليديون . نحفظهم عن ظهر قلب . نحفظ حركاتهم وسلوكهم . نعرف النساء الأكثر صراخاً في الحلقات ، والأكثر تطرفاً في تصرفاتهن إذا جاءهن « السر » . لكن « شكرو » مريد غريب ، مريد متقلب

طريف للغاية . يقطع تسعين كيلومتراً من المدينة إلى بيت الحزنوي على قدميه ، زاعماً أن البركة تكون أكبر إذا كبرت المشقة . و « شكرو » متوسط الطول ، عريض جداً . يلبس ثلاثة أثواب بعضها فوق بعض ، ويرتدي تحتها سروالاً من الصوف ، وفوقها عباءة سميكة من شعر الماعز . يرتدي كل تلك الثياب صيفاً شتاء ، ويحمل في يده هراوة طويلة مربوطة إلى معصمه بخيط من القنب خشية أن تضيع . وله — فوق هذا — هوس بجمع الخيوط من الطرق . كل جيوبه ملآى بالخيطان، وحين تفيض عن جيوبه يضعها في عمامته .

لا عمل لـ « شكرو » غير البحث عن الولائم ، ولائم الأعراس أو الولادات أو الختان أو الموت . وتنتابه نوبات صرع يرغي ويزبد فيها كثور ، ثم يفيق منهوكاً فيشرب سطلاً من الماء يندلق على لحيته الطويلة الكثة فتستحيل إلى مزراب . وليس لـ « شكرو » بيت . ينام كيفما اتفق ليلاً ، في زريبة أو في خربة .

كنا نخافه نحن الأطفال ، نخاف عينيه الجاحظتين ونوبات صرعه ، على العكس من النساء اللائي كن يسمحن له — وهو الذكر — بحضور « الحلقات » الخاصة بهن ، متعللات بـ « قصوره العقلي » . وكان «شكرو» يتحين ذلك ، بل يزيد في بلاهته لينعم باللعبة، فإذا اهتاجت احداهن و « ادعت » الاغماء في « حضرة » الاله ، ينهض « شكرو » اليها فيحملها خارج الحلقة . وقد ضبط مراراً وهو يضع « المغمى عليها »

في حجره على صورة تنبىء لا بالمساعدة ، بل بشيء آخر . ورأينا مراراً — نحن الأطفال — أن « المغمى عليهن » كن يثبن إلى رشدهن ، لا من اسعافات « شكرو » ، بل من شدة التصاقه بهن ، كن يحدجنه شزراً حدجاً ممتزجاً بشهوة خفية ، ويشتمنه مشيرات بأبصارهن إلى مكان متأهبٍ في جسده ، فيضحك ضحكاً كالنشيج ويستلقي .

كانَ « شكرو » مرحاً عادة ، لكن « يوم الظلام » احاله إلى كائن متجهم مذعور . أتعرفون « يوم الظلام » ؟ أفقنا ذات صباح على ظلام غريب ، ظلام أسمر ، وكان الهول مرتسماً على وجوه الكبار . انه الصباح حقاً ، لكنه صباح لا يرى فيه المرء أبعد من متر واحد . خرجنا إلى باحة البيت فكدنا نضل الطريق إلى الباب . الغبار الملكي ، الغبار الجسور اقتحم الأرض كلها. كان يندلق من الزجاج. يتسرب من الزجاج كما يتسرب شعاع الشمس . كان ينام معنا في الاسرّة حين أفقنا . كان داخل ثيابنا .

سرت الهمهمات : « انها العلامة » . توضأ الكبار وساروا إلى المسجد فسرنا وراءهم نتقرى الحيطان كما يتقرون . عميان يجرهم العميان . وعلى باب المسجد الضخم اجتمع رجال الحي كلهم . تمتمات وتعاويذ . ينظرون في اتجاه الغرب ويقولون : « ستشرق من هنا » .

كانت لعبة غريبة علينا ، لعبة بدأت بقلق صغير. ما لبث

أن بات ترقباً حقيقياً لطلوع الشمس من الغرب .

الغبار ينحسر قليلاً . صرنا نرى البيوت على الرصيف المقابل ، لكن الهول هو الهول : يروح « شكرو » ويجيء في وسط الشارع ، وحين يرفع يديه في اتجاه الغيب صارخاً : « مدد خوجا ... مدد » ترتفع هراوته المعلقة بخيط إلى معصمه . يصيح به الكبار : « اهدأ يا شكرو » ، فيركض « شكرو » إلى الإمام الواقف امام باب المسجد ، يقبل يديه في ضراعة ، وينظر إلى وجهه متوسلاً . يقول الإمام : « لا خوف على المؤمنين ، لا خوف عليهم » .

لا نعرف لماذا يقفون عند الباب ولا يدخلون ، لكن بعض التمتمات يسري عنا : « المسجد ملاذ أخير » ... إذن لم يأت ، بعد ، الخطر الفادح الذي يلجئنا إلى المسجد . نتنفس قليلاً ، ثم نكتم انفاسنا حين نسمع بـ « الدجال » و « اليأجوج والماجوج » . كائنات ستأتي . كائنات ذات لحى . كائنات لا يجاوز طولها الذراع ، تأكل الحديد والحجارة ... كائنات يقودها أعور على حمار أعور ، ينضم اليه العاصون في الأرض ، وأكثرهم من النساء . وهن سيتقدمنه عاريات يغوين من صمد ، وعلامة المجيء أن تطلع الشمس من الغرب . .

هذا هو الظلام النذير إذن ، وهذا الغبار هو غبار السور

الذي انهار ، السور الذي ضربه الله من حول اليأجوج والماجوج فما استطاعوا اجتيازه .

يقول « شكرو » للإمام : « سأردهم بالهراوة » ، يقول له الإمام : « اهدأ » . يقول « شكرو » : « سأعصب عيني فلا تقدر النساء على اغوائي » ، فيرد الإمام : « اهدأ » . يهرول « شكرو » من جديد رائحاً غادياً في وسط الطريق ، مبتهلاً : « مدد خوجا ... مدد » .

يرتفع الغبار عن الأرض ظهراً . تظهر الأشكال كما لو خرجت من بحيرة ترابية . ينظر النـــاس إلى أعــلى . تلوح الشمس خلف غلالة معتمة قرصاً أحمر باهتاً في وسط خوذة السماء . يحار الكبار : « انها في المنتصف ! اتراها طلعت من الشرق أم من الغرب ؟ » . يتريثون ليعرفوا في المدى المقبل اين تميل . لكن «شكرو» لا يتريث . يلقي بعمامته إلى الأرض ويصرخ : « من الغرب ، من الغرب ... مدد » . ثم تنتابه نوبة صرع فيستلقي على القارعة كسور اليأجوج الذي انهار .

بعد حين يظهر خطأ التقدير . تأجلت القيامة ، وتأجل خراب العالم ، وعلى الأرض أن تحتمل عبئها قروناً أخرى ، أن تحتمل الموتى ودسائسهم ، والأحياء ودسائسهم . وهنا ينفضّ الكبار عن باب المسجد ونبقى نحن الصغار ، فما يمر بعض الوقت إلا نركض خلف أغنام « حمـــدان »

الراعي ، الذي خرج من حظيرته متأخراً ذلك النهـــار ، للمرة الأولى ، بعد ثلاثين سنة من البكور .

ليس لـ « شكرو » صديق ـــ كما نعلم ـــ غير «حمدان». والأخير يؤويه في حظيرته أكثر الليالي . و « حمدان » في العقد الرابع من العمر ، يرعى غنم أخيه الجزار غرب المدينة . وهبه أخوه ، مقابل عمله ، بيتاً مسيجاً بسور طيني واطىء . بيتاً من غرفة واحدة ، ينام فيها مع اتانه وكلبه وبعض الخراف الوليدة ، وانضم اليهم « شكرو » بعد ذلك . أما الباحة الواسعة فكانت ملكاً للاغنام . لكن صداقتهما لم تدم طويلاً ، لأن « شكرو » لم يكتم أسرار صاحبه .

كبر « حمدان » اليتيم في كنف أخيه الذي أوكل اليه الرعي منذ صغره ، فنشأ لا يفقه من المدينة والناس غير الأسماء ، ولا يجاوز عالمه دائرة تتسع لمائة نعجة . كان وحيداً تماماً ، ولم يصن « شكرو » أسرار وحدة « حمدان » : كان يتحدث عن علاقة غريبة بين الراعي والاتان ، وكذلك عن علاقة غريبة بين الراعي وبين النعاج . واستدرج الفضوليون الكبار « شكرو » ليشرح تلك العلاقات تفصيلاً فلم يوفر شاردة أو واردة .

كان يقول ان « حمدان » ينهض ليلاً فيحشر الاتان في زاوية ، ثم يعتليها اعتلاء الرجل المرأة . أو يغتصب النعاج فوق العرزال .

غضب « حمدان » من تشهير « شكرو » ، لكن غضب أخيه من الاثنين كان أشد . ودفعا للأقاويل قرر تزويج الراعي ، فدفع الف ليرة مهراً إلى طفلة يتيمة في الحادية عشرة من عمرها . كانت طفلة حقاً ، تسرد لنا — نحن الأطفال — ببلاهة كيف يضربها حمدان إذا تمنعت عليه ، وكيف يخلع ثيابها بفظاظة كما يقشر البصل ، وكيف يسد فمها بيده الخشنة كي لا يسمع صراخها أحد ... وكيف ... وكيف ... ونرتجف — نحن الذين استدرجوها — من هذا الطقس كله ، ومن هذا الراعي الشيطاني « زوج النعجة » .

لم يكن لنا — نحن بذور الشمال — إلا أن نخرج من الشقوق مستسلمين لعاصفة الرعب . الرعب الرعب الرعب الرعب . به تبدأ الأرض وبه تنتهى . وبالرعب ذاته ، بالهذيان الذي يسدله الرعب على الأعماق ، كان علينا أن نتواصل في وسط كوكب من صراخ زوجة « حمدان » المكتوم ، من صراخ مديد يستفحل ويستشري . وكنا نضحك دائماً ، نرتجف من الضحك ، نضحك مرتجفين . وكيف لا نضحك من مشهد فتى راكض في الأزقة وخلفه المطاردون ؟ أتعرفون لماذا يطاردونه ؟ خذلهم في الدخول على عروسه ، نعم ... خذلهم فطاردوه كالملعون .

جاء والد « بيرام لـ « بيرام » بعروس من عمره (كلاهما في الرابعة عشرة) ، ثم أقام الأرض وأقعدها طبلاً

وزمراً لتكون شاهد اكتمال الفحولة . وذات ليلة من ليالي الكرنفال السبع دفع ابنه إلى غرفة جهزت النساء فيها عروسه، وانتظر مع المنتظرين خروج الفتى رافعاً بيرق انتصاره على غشاء النعمة الأزلي .

وطال انتظار الأب حتى الصباح . وقتذا اقتحمت النساء القلقات مضجع العروسين . ركضن يكشفن عن الفتاة فما رأينها إلا كما دخلت ، كنزاً عليه القفل ذاته . ولولن فارتعد الفتى . جررنه من شعره صارخات : « انه عنيديين » . تملص منهن الفتى وولى هارباً يتعقبه الصغار الصاخبون والأقرباء الذين خذلهم ، فغطوا وجوههم من الناس خجلاً بضع أيام . ونضحك نحن الأطفال ، نضحك من الفتى الخائب وننضم إلى المطاردين . هكذا ، دون انذار نعلن عداءنا . وجدنا ، أخيراً ، من نقاصصه غير خائفين من العقاب . نحمل حجارة خشنة ، نحمل التراب ملء قبضاتنا ونضرب رأس الفتى . نمعن في انتقام لا سبب له . نمعن في اكتشاف حقدنا على الكائن ، على أي كائن ، وحين نعيا عن اللحاق به طويلاً ، نكيل له الشتائم المرّة ، ونعود أدراجنا إلى حيث نسمع همساً غريباً : « ألم يلقنوا الكلب أن يفعل ذلك بيده إذا خذلته الفحولة ؟ .. تفو» . ونتساءل نحن : « بيده ؟ » من دون أن يكون للأمر أي معنى . فاليد للأكل وللضرب وللسرقة وللعب « البلي » لا غير . لكن الكبار يفعلون بأيديهم أشياء لم تخطر على بالنا .

كان ذلك كله في ما مضىٰ من وقت غريب ، القى على رؤوسنا نثاراً من طحين أسمر ،ومن حروف ونحاس وأباطيل حلوة كجذور السوس . كان وقتاً ليس لنا ، مثل الأوقات كلها التي تعاقبت على الأرض . بيد ان المكسورين مثلنا لم يكن ليأبهوا لانكسار جديد ، ولم يكن لأحد أن يأخذ منهم ما لا يملكونه . لذا وضعنا الدبابيس في علف بقرات « سيروب » ، وفتحنا سدود المياه على حقول « غربيت » حتى اختنقت ، ثم مضينا إلى مخادعنا لننهب ليلاً ما لم نقدر على نهبه نهاراً .

خاتمة يليها صبا لم أكتبه بعد

وماذا بعد؟ ماذا عن الكلبة السوداء «توسي» التي لم تترك قناً إلا وسرقت منه بيضة أو صوصاً؟ ماذا عن قتلها غرقاً في مستنقع «موسيسانا» بعدما ملأت المذاري الحديدية جسده ثقوباً؟ ماذا عن العصفور ذي الساق الواحدة، العصفور التراجيدي الذي كان يزاحم الدجاجات على حبوبها فتنقره الدجات فينتحي جانباً ينتظر فرصة لاختلاس زاده المرير؟ ماذا عن اصطيادك له بعد تربص طويل، وعن نتفك لجناحيه وإلقائه إلى الدجاجات ليتناوبن عليه نقراً حتى الموت؟ ماذا عن أخوة «شاكر» العتال، ، الذين حولوا عرس «بهرم» إلى مجزرة، لأن أخاهم كان يطمع في الزواج من العروس؟ ماذا عن خطفهم للفتاة بعد مقتل العريس وستة آخرين؟ ماذا عن اغتصابها تحت مطر من زغاريد النساء اللواتي تشفين من أهل العروس لرفضهم تزويجها من «شاكر»؟ ماذا عن «حندر» الذي اجتاز الحدود التركية

في ثلاثين رجلاً على الخيول ليأخذ « عفدي » من بيته سحلاً إلى تركيا ؟ مـــاذا عن صراخ « عفدي » وعويله ؟ مـــاذا عن الدرك النائم ؟ ماذا عن مخافر الحدود التي لم تحرك ساكناً، وكانت أعنف ماتكون حين يشتم طفل في بلادهم طفلاً آخر ، أو يعلن كردي أنه كردي ؟ ماذا عن « شاور » السكران أبداً ، عن وقوفه أمام بوابات السينما ليلاً نهاراً ، حاملاً ورقة حظ صغيرة ليقامر على علب « بول مول » ؟ ماذا عن « سطيفو » الذي يعبر الطرق عارياً بنصفه الأعلى ، وقد كتبت على ظهره كلمة « طرزان » بخط عريض ؟ ماذا عن « حبسونو » الأبله ؟ ماذا عن العتّالين الذين تعاقبوا عليه اغتصاباً داخل سور الملعب البلدي ، في وضح النهار ، أمام حشد من الأطفال الراجعين من المدرسة ؟ ماذا عن « غوليسار » الذائعة الصيت ، قهرمانة العاهرات المرخّصات ، التي رفض الأئمة الصلاة على جثمانها ، ورفضتها قبور المسيحيين والمسلمين ، فدفنت في أرض خاصة ، وحيدة بعد مجد إمبراطوري ؟ ماذا عن الملا أحمد ، إمام المسجد الصغير الثاني في المدينة ؟ ماذا عن سرعته المفرطة في اختصار خطبة الجمعة وصلاتها معاً ؟ ماذا عن المؤذن « عبد الرحمن » الذي رؤي مراراً يخرج من باطن سترته مجلات ممتلئة بصور عارية؟ماذا عن ثور الصوفي محمود، الذي اعتلى نصف بقرات الأرض مقابل أجر عن كل واحدة ؟ ماذا عن « دريج » الذي قامر بزوجته ذات ليلة ، حين نفدت نقوده ، فانتهب

إخوتها لحمه بالخناجر ، فعاش ، بعد ذلك بساق ويد مشلولتين وأذن واحدة ؟ ماذا عن الحي اليهودي وخوفنا الغامض منه ؟ ماذا عن هضبة « قولو » التي تتنفس ليلاً ، وماذا عن سعالى النهار في سهل « معيريكا » ؟ ماذا عن الكلاب ذات الرؤوس الآدمية في مقبرة « إنياس » ؟ ماذا عن الغجر المقيمين في أرض المقالع الجنوبية ، عن نسائهم اللواتي حيثما مررتَ بصخرة رأيت إحداهن خلفها ، نصف عارية ، تحت رجل غريب ؟ ماذا عن « أوسي » الكهل الذي يدور على الأحياء حاملاً على ظهره صندوقاً خشبياً يبيع فيه البوظة ؟ ماذا عن الغبار الأبدي ، وماذا عن بروق الشمال أيها الطفل ؟ .

لقد أيقظتنا لنسرد المهزلة .

(يليه الذي لا يلي أي شيء)

الفهرس

صدر للمؤلف

كل داخل سيهتف لأجلي ، وكل خارج أيضاً
منشورات « مواقف » ١٩٧٣

هكذا أبعثر موسيسانا
منشورات « تريونف » ١٩٧٥

كنيسة المحارب « يوميات »
منشورات الإعلام الموحد ، م . ت . ف .
١٩٧٦

للغبار ، لشمدين ، لأدوار الفريسة وأدوار الممالك
منشورات الإعلام الموحد ، م . ت . ف .
١٩٧٧

الجمهرات
منشورات دار «ابن رشد» . ١٩٧٩



الثمن : L 15.

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت